

اليوتوبيا الإستوائية

الخرطوم مستعمرة بريطانية

1910 - 1898

ترجمة

عثمان الخير



ماريـنا د إيريكو

اليوتوبيا الإستوائية

الخرطوم مستعمرة بريطانية

1898 - 1910

ترجمة

عثمان الخير

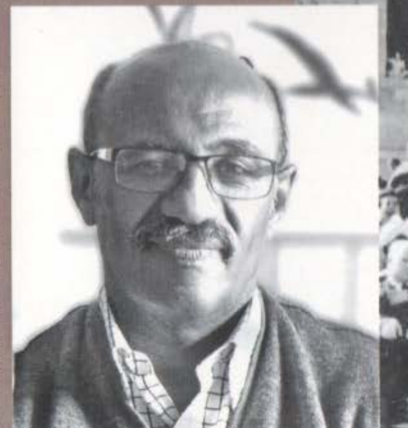
مارينا د' إيرَيكو

بعد أن نالت شهادتها من جامعة بادوفا في تاريخ العمارة والتخطيط الحضري، على رسالتها عن منطقة الباجونت (تحت إشراف ليونيللو بوتّي)، تعود ماريا د' إيريكو، بعد سنوات من الغياب، لمجال تاريخ التخطيط الحضري.

لقد كان اكتشافها المفاجئ، لمدينة اثارت افتتانها، محفّزاً لها لشحذ أدواتها والعودة للمهنة وللمُشرف والأصدقاء القدامى.

تعيش مارينا د' إيريكو منذ سنوات في باريس حيث تدير عملها الخاص.

عثمان الخير



مهندس معماري بخبرة أربعين عاماً ودكتوراة في المستوطنات البشرية.

نال تدريباً في انجلترا والمانيا والسويد وعمل في مجالات الاستشارات والأبحاث والتدريس والعمل الطوعي.

أسهم في الموسوعة العالمية للعمارة الشعبية – جامعة أوكسفورد.

نشر وترجم بعض الأعمال.

مدينة مثالية تُبنى من لا شئ، حيث يلتقي نهران ويمتزجان معاً ليولد النيل العظيم. فريق من نخبة المصممين. اليوتوبيا التقدمية للمخططين الحضريين والأطباء، ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، في مواجهة الإنفجار السكاني وحضارة الرجل الأبيض. هذا قليل من العوامل التي شكلت المشروع البريطاني لإعادة إنشاء الخرطوم في نهايات القرن التاسع عشر، بعد سلسلة من الهزائم الدموية والإنتصارات الصعبة. كل الشروط الضرورية والكافية لتصميم مشروع على أفضل ما يمكن، تم توفيرها. رغماً عن ذلك، تكشف الخريطة عن عدد من السّمات الغامضة التي تتقاطع على عدة مستويات: وجود بوتوكول سري، متجذر في لغز عسكري معقد، والبحث المضني عن موقف دبلوماسي متّزن أثناء التهافت البريطاني على إفريقيا مابين مؤتمر برلين والحرب العالمية الأولى، يقين بريطانيا الفيكتورية الذي لا يتزعزع في قيَمها الخاصة بها، الخلفية الثقافية الآيديولوجية

MARINA D'ERRICO

THE TROPICAL UTOPIA:
KHARTOUM
BRITISH COLONY
1898-1910

TERRA FERMA

غلاف الطبعة الإيطالية



مدارك للطباعة والنشر والتوزيع
٤١ العمارات من محمد نجيب
eliasfann@hotmail.com



اليوتوبيا الإستوائية

الخرطوم مستعمرة بريطانية

1898 - 1910

اليوتوبيا الاستوائية
الخرطوم مستعمرة بريطانية
١٨٩٨ - ١٩١٠

• •

ماريتا د إيريكو

ترجمة

عثمان الخير

• •

مصممون ومنفذون

دار مدارك للطباعة والنشر

• •

• •

الطبعة الأولي

٢٠١٦

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع

--- /٢٠١٦م



اليوتوبيا الإستوائية

الخرطوم مستعمرة بريطانية
1898 - 1910

■■

مارينا د إيريكو

■■

ترجمة

عثمان الخير

المحتويات

شكر

خلال الشـهور الطويلة التي استغرقها إنتاج هذا الكتيب، كنتُ محظوظة جداً بتلقي الدعم مـن أصـدقاء عـدة في إيطاليا والسـودان والمملكة المتحدة.

وأود أن أشكر بالأخص بروفيسور ليونيللي بوبي من جامعة كا'فوسكاري من فينيسيا، استاذي وصـديقي الذي التقيته بحرارة بعد عقـود من الغيـاب. لقد تابع البروفيسـور بوبّي هذا البحث خطوة إثر خطوة، مشـجعاً لي بالنصائح والحماس غير المنقطع.

بروفيسـور لوريدانا أوليفاتـو، من جامعة فيرونـا، قدم لي دعمـاً متواصـلاً وفعالاً، بالـذات فيما يختص بتسـجيل الملاحظات والمراجـع، الأمـر الذي أعـترف بأنني لم أمارسـه منذ فرغت من دراسـتي قبل مدة طويلة.

كل الفريق تحت قيادة بروفيسـور بييرباولو فاجّي، من جامعة بادوفا، يسّر لي الوصول لتقاريـر ونتائـج الأبحـاث التـي جرت في جزيرة توتي إبان المدرسـة الشـتائية عام

2014. بروفيسور أندريا بيز، بالذات، قدّم لي إسهاماً ثميناً فيما يختص بمفهوم الملكية والفراغ في أفريقيا - جنوب الصحراء.

أقدم شكري أيضاً للبروفيسور مارينا بوتاشين والدكتورة داريا كواتريدا.

بروفيسور جيانلوكا بودستا، من جامعة بارما ومن جامعة بوكّوني في ميلان، تفضلا بتقديم ببيانات من بحثهما عن السياسات السكانية في المستعمرات الإيطاليّة.

كذلك أقدم شكراً جزيلاً للدكتور برني سبا من جامعة بيرمنجهام، لنصائحه المفيدة عن البيبليوجرافيا.

كانت هناك ساعات طويلة ومثيرة من المحادثات مع الدكتور إبراهيم زكريا بحر الدين، من جامعة الخرطوم، عن الخرطوم اليوم. وقد قدم كل الأساتذة في كلية العمارة بجامعة الخرطوم كذلك دعماً غير محدود.

شكري الخاص أيضاً للسفير الفرنسي بالخرطوم، برونو أوبيرت، الذي عاونني بنصائحة الغالية وملاحظاته العميقة حول مسودة هذا العمل.

وأخيراً، أود أن أشكر الدكتورة فيديريكا كابّي التي عرفتني بالعالَم الزاخر للمكتبات الرقمية.

مقدمة المترجم

حالما وقع بصري على هذا الكتيب، التهمته دفعة واحدة دون توقف. وقد عدتُ بعد ذلك مرات عديدة لقراءته، واكتشفت كل مرة عمقاً جديداً، حتى أيقنت بأنني أرغب فعلاً في ترجمته، وأن أشرك كل قارئ في الدهشة التي أصابتني. وفوق أنه مقال طويل في الواقع، ومشروح بالخرائط والصور، مما يجعل من قراءته شيئاً مثل مشاهدة فيلم ممتع، فهو مكتوب بلغة أخّاذة وبقدرة على التحليل وسبك الصور تمنحه إثارة الرواية البوليسية. وبالفعل، مارينا د'إيريكو تنقلنا لأجواء أسطورية، خيّمت عليها مؤامرات القوى العظمى وأحداث عوالم بعيدة عنا، لكنها ربطت مصيرنا برغباتها ومطامحها. وتظهر الخرطوم في هذا الكتاب أحياناً مدينة للجواسيس والمغامرين والمستكشفين، ومرات مدينة شاعرية في حضن النيل وملتقى رافديه العظيمين، ومرات صنيعة زائفة تنتج عن مساومات سياسية ورغبة في المكايدة والزهو، (أنجزها كتشنر وهو يحمل علماً مصرياً)، ومرات أخرى، أيقونة ودرة لتاج الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، في جنوب الصحراء، قلب إفريقيا السوداء.

كان عبور مارينا بالخرطوم أشبه بالمصادفة، ورغماً عن بعض التوجس فيما أظن. لكنها سقطت فوراً، على رأي أستاذها ليونيللي بوبي في المقدمة الرفيعة التي كتبها لها، في حب المدينة من أول نظرة. إلا أنها لم تنشغل بالتدله في مشهد الخرطوم وحياة سكانها، بل استغرقت

في النظر في ما يعنيه مخططُها، الذي يبدو علماً بريطانياً ويبدو مثل خريطة شيكاغو ويبدو تائهاً أحياناً ويبدو ممسكاً بأسرار عميقة أحياناً أخرى. ربما قرأنا العديد عن الخرطوم، بعض الكتب والكثير من المقالات، وهي في معظمها سرد تاريخي للأحداث والذكريات والوصف لحالات الخرطوم المتعددة. لكن كتاب مارينا شئ آخر. لقد انهمكت الكاتبة أولاً في التقصي وقرأت الكثير جداً من المدونات والوثائق، وحملقت في الخرائط بفراسة تُحسد عليها، وهذه المواد كلها، كما تقول، موجودة هنا في دار الوثائق ومكتبة السودان. وهي قد تنقلت بين هذه الكتابات بمقدرة مثيرة للدهشة، يقودها سؤال ملحٌ. ونسجت من كل ذلك رؤية طازجة، طرحتها على خلفية مشهد السياسة الدولية وتيارات الأفكار والنظريات التي كانت تعترك في الساحة العالمية. أعترف بأنني قد فوجئت. فأنا أعرف الخرطوم، ذلك الجزء الكولونيالي على الأقل، شارعاً فشارعاً ومبنى فمبنى. وكنت آخذ كل ذلك بثقة كأمر واقع تعودنا عليه وعلى تاريخه الذي قرأناه. لكن مارينا نظرت خلف البنايات والشوارع والأشجار، وهي لم تصدّق كل شئ صادفها، وأعملت ذهناً وقاداً وشغوفاً بالمعرفة، ونظرت بعيون جديدة ورؤية تستكشف الأشياء للمرة الأولى. لكل ذلك، فقد قرأت ما بين السطور وأخرجت هذه الدرّة التي، اختلفنا معها أم اتفقنا، ستعيد رسم انطباعنا عن الخرطوم وتترك صوراً في مخيلتنا، تنبض كلما مررنا في أنحاء المدينة.

هذا كتاب لكل شخص، للقراءة الممتعة وللدراسة الموثقة، للمهتمين بالعمارة والتخطيط والدراسات

الحضريــة وللمهتمين بالتاريــخ والباحثين عن مكوناتنا الثقافيــة وعلاقتنا بمدينتنــا . واعتقد كذلك، أنه يشــكّل إضافة لمناهج الطلاب في كل هذه المجالات. لقد شرعت أفكر في ضــرورة مقدمة للمترجم، مســتهدفاً النظر في الأمر من زاوية المواطن المقيم وليس الأكاديمي الزائر مثل مارينا، ومســتهدفاً حثّ مفكرينا وطلابنا ومواطنينا على أخذ هذا الكتيب الصغير مأخذ الجد. في هذا الأثناء، قام الصــديق د. عمر ياجي، الذي استعنت به للنظر في المســودة، بتســطير الكلمات التالية والتي استأذنه في نشرها كاملة، حيث أنها أغنتني عن الكثير من الحديث:

"لقد مضــى على بناء الخرطوم ما يقــارب القرن وربع القــرن، وذلك إثر موقعــة كرري، واســتتباب الأمور لكتشــنر في الســودان. وعلى الرغم من ذلــك، إلا أن حكايات حرب النهر بمعاركها الأسطورية، وبناء مدينة الخرطوم الأيقونة التاريخية التي حســمت صراع الدول الاســتعمارية في منطقة وســط وشرق إفريقيا، لا تزال تشــغل بال المؤرخين وتنال حظاً وافراً لدى القرّاء على مستوى العالم.

كانت بريطانيا ومصر تضمران عداوة للمهدويين، الذين كان بأسهم كغضــب النار على الضرام، وألحقوا هزيمة تاريخية بالحكم التركي البغيض. ثم تبع ذلك، بعد حوالي عقــد من الزمــان، معركة كرري الشــهيرة حيث تدافع الدراويش كالضــواري الكواسر وأبدوا مــن الإقدام ما أذهل المراسلين الحربيين ومؤرخي المعركة. ولم يدخل كتشنر إلى قلب الســودان، إلا على أجساد ما يربو على ثمانية الآف من المهدويين البواسل.

لقد حسم الموقف التاريخي وسيطرة كتشنر على الخرطوم، سباق القوى الاستعمارية وصراعها الضاري لبسط سيطرتها على شرق إفريقيا ووادي النيل. وعليه، كانت فكرة بناء الخرطوم كأكبر مدينة في إفريقيا جنوب الصحراء وفاءً لغردون وتطبيباً للجرح الذي أصاب الأمة البريطانية عقب مقتله، ثم احتفاءً بكسب صراع الشرق الإفريقي ووادي النيل، ولإخماد الجفوة الفرنسية التركية (العثمانية) المصرية إزاء بريطانيا.

يحتوي هذا الكتاب على معلومات وبيانات في غاية الأهمية، حول الظروف التاريخية التي اكتنفت نشأة مدينة الخرطوم، ويشمل الخطط المعمارية والنسق العام الذي اختير للخرطوم كمدينة كبيرة وهامة. ولقد تم إعداده باسلوب مهني جيد إعتمد المنهجية والدقة والوضوح، وبيان المصادر والمراجع الموثوقة. ولقد تمت صياغة الموضوعات بلغة جيدة وبليغة. ولا شك أن كاتبتها تُحسب في غمار الذين لهم بهذا العلم دراية وعناية.

دون جدال، يعتبر هذا الكتاب ضمن المرجعيات الهامة في تاريخ الخرطوم والظروف التي اكتنفت بناء المدينة. وكما أن البيانات والرسومات المعمارية الهامة قد وردت على نحو واضح ورصين. فلا غني، إذن، للباحثين والمهتمين بشئون هذه المدينة الأيقونة التاريخية الساحرة، من الإلمام بمادة هذا الكتاب".

كان هذا إسهام د. عمر ياجي، لكن هناك إسهامات أخرى يتوجّب ذكرها. برفسور أحمد الصافي وأستاذ

الياســ فتح الرحمن كانا متابعين لمراحل ترجمة الكتاب وقدمــا دعمهما بالتحفيز ومناقشــة المســودة كما قدما الاقتراحات والتصويبات. وقد تولى الياس مهمة تصميم الكتاب وطباعته ونشره. بدرت مساهمة أخرى والكتاب تحت الإعداد للطباعة. فقد تناول المادة الصــديق يحيى أحمد (شــورة) وانهمك في صــقلها بلمســات سحرية، ســيّما التعابيرِ الواردة باللغة الفرنسية، حتى أدركتُ أن حماسي وبعضَ إلمامي بالموضوع لا يغنيان عن الخبرة الاحترافية. كذلك أســهم الدكتور ســاندرو جرِيســبان بالتدقيــق في النصــوص الإيطالية. لهم جميعاً الشــكر الجزيــل، وإنني لآمــل أن أكون قد أوفيــت الكتاب حقة وحافظت على روحه الفياضة ولغته الصقيلة.

بقي شــئ أخير. لقد سقطت مارينا في الحب مرة ثانية. هذه المرة مع أم درمان. التوأم اللدود للخرطوم، والذي يُشــكّل مفارقة بينة عنهــا في كل مناحيها، كما هو ملتئم بها بشــكل لا فكاك منه. ومارينا منكبة الآن على قراءة الوثائق وتلمس الحقائق عن أم درمان. ما الذي ستخرج به هذه المرة ياترى؟

استهلال
ليونيللو بوبّي

إنه لمن المصــادفة نوعاً ما أن مقالــة مارينا د' إيريكو الجميلة عن مســار الأحــداث والنوايا ومقاصــد تاريخ الخرطــوم منذ المصــفوفة العثمانية إلــى إعادة الترتيب الإنجليزي - المصري، عبر ما يسمى بثورة الدراويش، بما يغطي ثمانية عقود من 1820 حتى نهاية القرن التاسع عشر، إنما تظهر على أعقاب معرض ميلانو (28 ديسمبر 2014)، الذي نظمه برِنّو آلبرشــت، والمســمّى إفريقيا __ التغير الكبير، الفرَصــة الكبــيرة. فمن جهة، كانت واحدة من أكثر مناحي المعرض أصــالة وإثارة للاهتمام هي، كما علّق ماوريتسيو جيوفري، 'استكشاف الدلالات الإشكالية التي تنطوي عليها المفاهيم الأخلاقية والجمالية المعاصرة، بالإزاء للتعقيدات الإجتماعية والإقتصادية في الأجــزاء المختلفة من القارّة'، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنطقة الشاسعة، بلا ريب، جنوب الصحراء المسماة بالســودان في التعبير العربي، أو إفريقيا السوداء. من الجهة الأخرى، يأخذ الســؤال منحىً من الأهمية يتجاوز حدود التبرير. ويتعيّن علينا هنا أن نتساءل عن الطبيعة والأهــداف الحقيقية لمفهوم الحداثة، بما يؤدي لســؤال آخر، بالتحديد عن المســتفيدين حقيقة من كل هذا التغيّر الكبير، الذي لا شــك فيــه، والناتج عن هذه الفرصــة العظيمة.

فلنأخذ اســتنتاج سلفاتوري ســيتّي العميق المضمّن في كتابه'عندما تختفي مدينة البندقية'(Einaudi، Torino

20 .pp ،2014-22) الذي صــدر حديثــاً: الحداثة هي استجابة للنمو السكاني العارم (مثل الذي خَبرته أوروبا ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين) وتهدف للحصول على 'الرفاهية الاجتماعية' بتوفير الطعام، التعليم، محو الأمية، التطور الطبي، والاستهلاك المتعاظم. عموماً، وعلى رغم 'التداخل المشــترك بين المساكن والمصانع، الصــناعة والمدينة'، هل يمكننا القول بأن هذه الحالة قد تم تحقيقها بتغذية الشــعور الذاتي بالهوية المعتمدة على ذاكــرة تاريخية والتــي زودت كل مواطن فرد بالجذور الضرورية والانتساب لتوجيه خبراته المهنية والحياتية لشــئ يمكن الســيطرة عليه؟ وبكلمات أخرى، هل يمكن للحداثــة أن تُقارن بآلية لإنتاج المدن الضــخمة، بمعيار 'حشــد القنوات تحت الأرضــية والمدن القمرية والطرق الحضرية والأساليب المضــللة الأخرى (...)، ماكينة لإنتاج البضائع واستهلاكها يصبح فيها كل مواطن ترساً في آلة ضــخمة كالنحلة العاملة في الخلية النشطة'، على غرار نموذج بو زيلاي في شــونغكينج 'الغابة الحضرية' والتــي أدت فيها السياســات العمرانيــة المنطقية لتزايد سكاني من 600 الف عام 1930 ل 32 مليونا اليوم؟

عبر العقود الأخيرة، وخاصــة بعد انحســار الاستعمار وإعادة تنظيم جغرافيا القارة إلى دول مســتقلة، شهدت إفريقيا أيضــاً تزايداً ســكانياً مثيراً للإعجاب، أنتج مدناً مكدّســة على نحو مستمر. لقد زاد تعداد السكان الحضر من 4% إلى 38% من مجموع الســكان العام. وفي عام 2050، حينما يكون تعداد ســكان العالم تســعة بلايين، ســيعيش بليونــان منهــم في إفريقيا. وفي هــذا التّزايد

المذهل ونشوء التجمعات الحضرية الجديدة، فقدت المستوطنات التاريخية الصغيرة، التي كان مناطاً بها تصدير سلع معينة (غالباً رقيق)، أهميتها السابقة وبدأت تستقبل أعداداً يائسة ومدقعة وجائعة من بطن القارّة. وربما يكفي ذكر مثال لورينزو ماركيز (مابوتو اليوم) وكينشاسا ولاجوس، المعروضة على الجناح 4 في المهرجان 'دوكيومنتا 2 [2000]' في مدينة كاسل: مدن فقيرة شاسعة بلا خدمات ولا رعاية صحية ولا كهرباء تخنق براعم المراكز الحضرية التي وُرثت من العهد الاستعماري. ماوريتسيو جيوفري، ولا زلنا مع تعليقه حول معرض ميلان السابق ذكره وعلى ضوء كتاب جاك فيرون عولمة العالم [Il Molino، Bologna 2008]، يقول صادقاً إن التجربة النظرية والعملية للمدينة التي أنتجتها الحضارات الأوروبية والآسيوية لا تعرفها الثقافات الإفريقية (ولا زلت أشير لمنطقة السودان جنوب الصحراء) حيث لا يوجد فارق بين المدينة والريف. وحتى ما يسمّى بالمدن التي احتفى بها الرحالة العرب والبرتغال، باعتبارها صوراً لازدهار الممالك العظيمة في مالي وغانا وزيمبابوي هي في الحقيقة تجمعات قري متصلة بشوارع معبدة ومحاطة بجدران ضخمة وعاتية من الطين، كما لو كان الأمر إبرازاً لصورة إقليم بشريٍ عميق التريّف، بل أكاد أقول: بصورة لا رجعة فيها. وهكذا، وبسبب نقص كفاءة المعالجة، فإن 'أسلوبَ الحياة الريفي والتلقائي الذي يُمارس في القُرى' (جيوفري) لا يفَشل في أن يتسلل إلى، وأن يسُود، النسيج الحضري (إذا جازت التسمية) للأحياء الفقيرة المتردية، الشئ الذي يُلحق الضرر بالبنيات التحتيّة المرصودة

لتنشيط استثمار باطن الأرض والصناعات والعمليات الاقتصادية.

بكلمات أخرى، من هم المستفيدون من الفرصة الكبيرة وما هو التغيّر الكبير اللازم لإحداثها؟ بصورة ملازمة (ومعرض ميلانو دلل على ذلك بشكل واضح جداً)، فإن تمويل 'المشروعات الكبيرة' الذي يخصصه البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي كان دائماً لمصلحة الشركات والمهنيين الأجانب، وليس على الإطلاق للوطنيين منهم. ويتوافق هذا المنحى مع الآيديولوجيات النيولبرالية التي توجّه وتحكم 'الدول القوية' في محيطنا الدّولي، معبرة عن مفهوم للحداثة يُدين الواقع على أنه حالة من الاستسلام غير الممكن إصلاحها أو الرجوع عنها (كم من الحلول توجّه حقيقة للاستثمارات المحلية؟ كم من المهنيين المحليين يجري اشراكهم؟) ول'كوكب الأحياء الفقيرة' الذي تنبّأ به مايك ديفز؟

إن نماذج 'المدن المثالية' (اليوتوبيات الحضرية التي كانت سمة في عصر النهضة) تمت ترجمتها لتجارب ماثلة من 'المدن المخططة' في مستعمرات العالم الجديد، خاصة أمريكا اللاتينية، كما دلل على ذلك ليوناردو بنفولو. هذه العملية على العموم، غائبة قطعياً في ممارسات الاستعمار الأوروبي في جنوب الصحراء الإفريقية. نتيجة لذلك، لم تشهد المنطقة مستوطنات منظّمة، إلى جانب المباني الكلونيالية الرسمية لمؤسسات (دينية، مدنية، عسكرية، وفي بعض الأحايين دبلوماسية وقنصلية). هذا دون أن نذكر العزل المضروب بين المستوطنين البيض ورعاياهم، الذين ربما كان بمقدورهم أن يُعيدوا

تنظيم طرق القرى الملتوية، وأن يقترحوا أو حتى يفرضوا اتجاهات جديدة ممكنة، وأن يتبنوا، أو على الأقل يجربوا، أدوات جديدة ضد التحضر العارم.

الفرصة المهدرة الثانية هي تبني أو على الأقل تجريب أدوات ضد التحضر العارم. صممت هذه الأدوات بواسطة يوتوبيات معمارية غربية للتعامل على أفضل نحو مع شبكات الطرق، 'حدائق المدن' و 'المدن الجديدة' خاصة بعد تجربة بيير ل' انفانت مع واشنطن، التي نتجت أيضاً عن الاستيعاب النشط لحداثة تعتبر عملية إشكالية أكثر منها مصيراً لا مناص منه (نهاية التاريخ) للفكر المتسق.

تذكّرنا حالة أديس أبابا، نوعاً ما، بالتخلّي المأساوي عن مدينة جراند بسّام في نهايات القرن التاسع عشر: ما بين الأعوام 1888 و 1889، طوّر وألهم - إذا استطعنا القول- الملك منلك وزوجته تايتو بتول مخططاً لإنشاء مدينة استوائية كشف عن نتائجها المخيبة للأمل إيفيلين واف. ولقد أحْييت الخطة ما بين الأعوام 1937 - 1938 بعقلانية غيدي وفالي المضمّخة بالخطاب الفاشستي لتسقط مرة أخرى. تحت هذا الضوء، تبرز الخرطوم كحالة متفرّدة، نتاج تجربة استمرت قرناً ونصف قرن، مدينة إسلامية كانت تحكَمها السلطات العثمانية شكلت معملاً لتطبيق مختلف النظريات الغربية عن 'المدينة الجديدة'. إن مشروعاً معقداً وأخّاذاً وأصيلاً بهذا القدر لن يفشل في أن يسطع في تاريخ التخطيط الحضري. على العموم لا تزال هناك حاجة لتوليفة تعالج العلاقات الجدلية المستمرة مع أوضاعها الاجتماعية الاقتصادية. ومن المؤكد أن الاتفاقيات الوطيدة والإضطرابات الفوّارة

إبان العصر الفيكتوري لا بد أنها قد شكلت الصورة التي بدرت لناظري المبشر الفيروني اليساندرو دال بوسكو. فبعد أربعين عاماً من إنشاء الخرطوم الإسلامية، كانت المستوطنة تبدو كمدينة فقط ب'حجمها' إذ كانت مزرية بلا نظام 'واضح' ولا تماثل. كانت شبكة طرقها، التي تبدو كمتاهة، تؤكد الانطباع بأنها قرية ريفية وقبلية لم يستطع المبشّر أن يستوعبها.

إن سقوط مارينا د' إيريكو في الحب من النظرة الأولى لخرطوم اليوم، قيض لها أن تستعيد تاريخها وتخرج لنا بخلاصة مبنية على الوثائق والقرائن المعمارية، نحن في غاية الحاجة لها. إن عملها المتقن لهو مؤشر على تدريبها السابق كباحثة في تاريخ العمارة والتخطيط الحضري. بعد إنجازها لبحث غاية في الأصالة، عن مفهوم 'المقاطعة' في منطقة الفاجونت عقب الكارثة، قادت تصاريف الحياة مارينا لأن تضع اهتماماتها البحثية جانباً - حتى حانت اللحظة العارضة، لكن الحتمية، التي منحتها إياها الخرطوم، والتي أعطتها فرصة غير عادية لتناول ومواصلة السجال الذي ظل مفتوحاً. النتيجة هي هذا الكتاب الثمين، الذي يقدم إفادة طالما انتظرناها عن هذه المدينة. مارينا د' إيريكو، التي أسعدني أن أعتبرها من أنبه طلابي - تقدم هذا الدرس الممنهج لجمهور غير متخصص بغرض تبصيرهم بالتاريخ والمصير، غير المدركين كثيراً، لمدن جنوب الصحراء تحت لافتة الحداثة التي تجب تعريتها.

اليوتوبيا الاستوائية

الخرطوم مستعمرة بريطانية

١٨٩٨ - ١٩١٠

مقدمة

ماهي الشروط التي تكمن خلف اختراع عاصمة جديدة؟ هذا السؤال التقليدي الذي يلقيه مؤرخو التاريخ الحضري لهو مناسب على الأخص فيما يتعلق بعاصمة السودان. وفي العصر الذهبي للتخطيط الحضري في إفريقيا الكلونيالية، كانت إعادة بناء الخرطوم بواسطة البريطانيين بعد (فتحها)، أو - حسب موقفك من الأمر، بعد (إنتزاعها) يمثل ازدواجية مثيرة. فمن جهة، لدينا عدد من العناصر الموضوعية التي ألقت بآثارها على مخطط المدينة والتي يفترض أن تساعد على قراءتها. ومن الجهة الأخرى لدينا فيض عظيم من الأدبيات يحفل بأكثر التفسيرات المتباينة، بما في ذلك الغريبة والأسطورية، مثل نظرية أن المدينة قد خططت على غرار العلم البريطاني لتحقير الشعب السوداني المهزوم.

في صبيحة 2 سبتمبر 1898، عندما سقطت أم درمان في يد الجيش الإنجليزي المصري بقيادة الفيلد مارشال هوراتيو كتشنر، كانت المدينة المجاورة لها، الخرطوم، مهجورة ومهملة لسنوات وكان معظمها قد استحال لكومة من الركام. جاء القرار، للتو تقريبا، بإحياء الخرطوم عاصمة حديثة للمستعمَرة الجديدة، حيث لم تكن هناك موانع ذات أهمية تذكر بشأنها. بل على العكس، فإن الأرض المنبسطة التي بُنيت عليها، عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، تجعل من السهل ترحيل مواد البناء ونقل الأنقاض من المستوطنة القديمة، التي كانت معظم مبانيها قد تخطت إمكانية ترميمها. وكمثال لم تبرز في

عاصمة السودان مشكلة الحفاظ على، وتضمين، الحي القديم في المدينة الجديدة، تلك المشكلة التي واجهها ليآوتي عندما صمم مخطط الرباط الجديد، في السنوات الأولى للمحمية الفرنسية في المغرب.

كان فريق المشروع مكوناً من ثلاثة مهندسين لا جدال في كفاءتهم المهنية: المذكور أعلاه القائد العام للجيش المصري (سردار) كتشنر، كان العقل الحقيقي خلف المشروع، والذي كما يبدو، قد أعدّ له سلسلة من المخططات الأولية العديدة. تدرب كتشنر في جمعية المهندسين الملكية المرموقة وكان يحق له أن يفخر بخبرة ذاخرة كمساح قام برسم خرائط فلسطين وهو لا يزال مهندساً مبتدئاً، الكولونيل عريف ج ف جورنج أيضاً من الجمعية الهندسية الملكية، والأصغر، و هـ ماكلين، المدني الوحيد في الفريق، الأستاذ في كلية غردون والمصمم، فيما بعد، لمشروع إعادة إنشاء القدس.

طُرح مخطط الخرطوم على المسرح العالمي في مؤتمر لندن 1910. وتم عرضه على أنه نموذج عالى النجاح لمخطط حضري بريطاني وفق الأصول مزروع في بيئة استوائية. كان العرض مصحوباً بتقرير فني عالى الدقة والتفصيل بالنسبة لعصره وقوبل المشروع بإجماع عظيم دون اعتراض تقريباً، هذا على رغم أن صدى بعض الخلافات المبطنة يمكن أن نستشفه في بعض التصريحات.

إن التاريخ الحديث نسبياً للمدينة، التي بزغت كمستوطنة ريفية متواضعة قبل ترقيتها لمرتبة الحصن العسكري بعد الغزو التركي عام 1820، يظل موسوماً بسمة أسطورية

بينة. وبعض المسؤولية في هذا تقع على تاريخ القرن التاسع عشر، المبنِي على دور الأشخاص الأبطال المثاليين، كما كان يروجِ كارلايل. لو كان المصير المأساوي لغردون، الذي تُرك لحتفه، ومصير كتشنر الغامض، ملقىً به في اليم مع الهامشير الغارقة بلغم ألماني في 1916، تصلح على الفور لهذا النوع من التفسيرات التاريخية، فإنها، ويجب أن نعترف بذلك، ليست باهرة بشكل خاص في معرض حمَلة بيارق تاريخ المنجزات الكلونيالية[1]. أكثر من ذلك، فإنها لا تتجاوز بناة المدن الآخرين من نوع ليآوتي المذكور أعلاه. رغماً عن ذلك، على المرء أن يأخذ في الاعتبار، كما تفعل الورقة الحالية، الشحنة العاطفية التي فجرها غزو السودان لدي الشعب البريطاني، والظروف الخاصة التي حتّمت ذلك، وصداها في الصحافة البريطانية. إن سيل التخميناتِ التي أثارتها حالة الخرطوم، وسط ازدهار المدن المُنشأة من فراغ أو التي بُنيت خلال التهافت على إفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، يجعل من المهم أن نبدأ من الخريطة الأصلية ومقارنتها بالتقرير الفني المصاحب، ومن ثم تأطيرها في السياق التاريخي والجدال الثقافي آنذاك عن فكرة المدينة بشكل عام وعن

1- عن منشأ فكرة البطل الاستعماري، باشارة خاصة لدور الإعلام، : أنظر

B. SEBE, Porte-Drapeaux de L'Empire: La promotion des héros coloniaux francais et britanniques de la conquête de L'Afrique ã la Seconde Guerre mondiale, in "Synergies Royaume-Uni et Irlande", 2, 2009

أنظر أيضاً:

B. SEBE, Heroic imperialists in Africa, The promotion of British and French Colonial Heroes, 18701939-, Manchester, 2013

مدن إفريقيا الاستعمارية بشكل خاص.

هذه المقارنة تكشف عن عدد من المفارقات التي لا فصام لها وأيضاً بعض الخيارات غير المتوقعة، والتي هي رغماً عن كل شئ، منهجية ومتكررة بشكل ينبئ عن وجود اتفاق خفي. ما هي الشروط التي تكمن خلف إختراع هذه العاصمة بالذات؟ أو بدلاً عن ذلك، ماذا كانت النوايا الحقيقية لرعاة المشروع؟ هذا الدليل الغائب، المفقود في كومة البيانات المتاحة، يحيّر المؤرخين ويموّه حدودَ مخطط كان يفترض أن يكون، على نقيض ما هو حادث، كامل الشفافية. هل من المحتمل أن موجهات مخطط المدينة حوت رسالة لم يمكن تسجيلها في الاتفاقات الدبلوماسية، بلِ على العكس، كان لزاماً أن يتمّ نكرانها باستمرار، نظراً لطبيعتها الفائقة السرية؟ هل يمكن لعاصمة أن تكون أكثر من مجرد انعكاسٍ للسلطة القائمة، وأن تصبح مُحفزاً لسلطة قادمة، تكويناً فراغياً، أداةً للتحكّم في وإدارة الخطة الموجهة لتحقيق انتقال، بأقلِ دموية ممكنة، نحو التغيير السياسي الذي يُضمره حُداة المشروع؟

هذه الأسئلة وَجّهت اختيارنا للأدلة التاريخية باعتبار مقاربتها الزمنية للأحداث ورؤيتنا للمادة التاريخية الوفيرة عن المدن الإفريقية الاستعمارية، بحثاً عن الدراسات التي، وبسبب الحاجة لمعطيات عن الخواص العمرانية لإعادة إنشاء بريطانيا للخرطوم، ربما تعطينا، على الأقل، بعض المفاتيح لفهم ذلك المشروع البعيد. وإذا كان بحثنا هذا لا يستطيع الإدّعاء بأنه توصّل للحقيقة، فإنه على الأقل، قد استهدف التوصل لنتيجة منطقية مطابقة.

'لقد ذكرتُ بالفعلِ أنّ الخرطـومَ مَدينةٌ، لكن عليك أن لا تتخيل مطلقاً شيئاً مثل مدينة أوروبية. لقد أسميتُها مدينة بسبب حجمها، أما فيما يختص بالباقي فهي تبدو قبيحة ومشوّهة، ولو كانت في أوروبا لما كانت سوى خرابة، لا تسوى حتى مجرد النظر إليها. ليس فيها نظام ولا تماثلٍ، وكلِ الشوارع وعرة ومعقّدة، ويحتاج الشخص مراناً طويلاً قبل التعود عليها، لذلك فإن القادمين الجدد يضيعون كأنهم في متاهة. . . . بنيت المساكن من الطين والبلاط المجفف بالشمس، وإضافة لشكلها القمئ البائس، فإنها منخفضة ومغطاة بأسقف هزيلة، مبنية أيضاً من الطين والخوص. . . .'[2]

كان هذا وصف اليساندرو دال بوسكو، المبشّر الكمبوني من فيرونا، للخرطوم في خطاب لرئيسه بتاريخ 27 اكتوبر 1858. كانت الخرطوم قد أنشئت قبل سنوات قليلة، في 1820، عندما عبر الجيش المصري حدودها الجنوبية ليغزو سلطنة الفونج في سنار (عاصمتها) والتي كانت تغطي معظم سودان اليوم الشمالي عدا دارفور. كانت السياسات الحدودية التي سنّها الباشا محمد علي موجّهة ضد جيران مصر في الشرق الأوسط. وكان الهدف المبطن هو الإنسلاخ من سيطرة الإمبراطورية العثمانية التي ظلت مصر ولاية تابعة لها، على الأقل

2 - E. FILIPPI, Don Alessandro Dal Bosco: da Verona a Khartoum e ritorno, in A. BRUGNOLI, G.M. VARANINI (eds.), Magna Verona Vale. Studi in onore di Pierpaolo Brugnoli, Verona, 2008, pp. 219-228.

من ناحية القانون الدولي. نتيجة لذلك، انتهى السودان إلى وضـــع قانوني متميز وباهظ، والذي ســيعيد نفسه، بعد إجراء التعديلات اللازمة – mutatis mutandis، بتعقيدات إضافية تحت الغزو البريطاني.

بالرجوع لعام 1820، لم يكن الســودان بحدوده الحالية قـــد ظهر للوجـــود: كانت هناك مملكة النوبة وســـلطنات دارفور وســـنار التي كانت تعيشـــ في مناطقها الجنوبية بعض القبائل المحلية. وبحسب القانون الدولي فقد كانت هذه المنطقة الشاســـعة ممتلكات مباحة. وبعد الاحتلال، أصبحت مستعمَرة لمستعمَرة أخرى، هي مصر، وبانتقال الملكية، ســـقطت تحت سيادة الأتراك. نتيجة لذلك، فقد دفع المصريون رؤســـاءَ القبائل المحلية بحكمة، للوقت الراهـــن على الأقـــل، أن يؤدوا قســـم الولاء للســـلطان العثماني.[3]

في هـــذا الأثناء، كان شريط الأرض عنـــد التقاء النيلين الأزرق والأبيض، وجزيرة توتي في المنتصـــف، يأوي تجمعـــات قليلة فقط من المزارعين وصـــائدي الســـمك. عموماً وبســـبب وضـــع المنطقة الاســـتراتيجي المعتبر وأهميتها العسكرية، اســـتخدمها الجيش المصري لبناء مقـــر قيادتـــه، بعد محاولة أولى للاســـتيطان بســـنار، بددتها الأوبئـــة. وهكذا، فمنذ نشـــأتها وُلدت الخرطوم لتصـــبح عاصمة اســـتعمارية، وحافظت على هذا الدور حتى استقلال السودانِ عام 1956، عدا اعتراض واحد: الثورة المهديـــة. بدءاً من 1830، قـــام الحاكم التركي

---

3 - M. ABBAS, The Sudan Question: the dispute over the Anglo Egyptian Condominium, 18841931-, London, 1952.

المصري علي خورشيد أغا باشا ببناءٍ مسجد في المدينة ومستشــفى ومعسكرين للجنود وأخيراً قصرَ الحاكم على نفس موقعه القائم الآن. كل هذه المباني كانت قد اكتملت في الوقت الذي وصــل فيه بادر د ال بوسكو للخرطوم. واليــومٍ، لا يــزال هناك رســمٌ للقصر مــن العام 1834 معروضاً في متحف القصر الجمهوري.

وتحــت النظام التركي المصــري (التركيّة) مرت المدينة بتطورات سريعة: واســتقر فيها الأوربيون[4] والأتراك والشركس والمصريون والسوريون والأقباط والإغريق والأرمن، الذي قدموا مع الجيشِ المصري. وحتى 1840 كانت المدينة تزدهي بثلاثين ألفاً من السكان[5].

وفقاً للخرائط التي رســمها جوزيف-بونس د' آرنو من الذاكرةعام 1840 وغيوم لِ جان عام 1860، أعاد بشرى الطيب بابكر تركيب صــورَة العاصــمة، التــي ميّز فيها

---

4 - عندمــا جــاء البريطانيون في مصر عــام ١٨٨٢ كان هنــاك مائة ألف أوروبي في القطر.
(,Leiden, 1991 ,1914-H.WESSELING, Le Partage de L'Afrique, 1884)
أنظرِ الترجمة الفرنسية، باريس، ١٩٩٦، ص ٨١
شكراً لتنــازلات الإمبراطورية العثمانية، فقــد استمتع المجتمع الأوروبي بمزايــا عديــدة: لم يدفعوا الضرائب علــى مساكنهــم أو تجارتهم، وكانوا خــارج النفوذ القضائي للمحاكم المصريــة. كانت محاكماتهم تتم في محاكم قنصليــة، كان تطبيقهــا للعدالة أحيانا مظهرياً فقــط. وتحت حكم اسماعيل باشا، والذي احتاج لرؤوس الأمــوال الأجنبية لتنفيذ سياساته التجديدية، إزدادت أعداد وقبضة الأوربيــين الذين كان بعضهم ضالعاً في كل أنواع الممارسات غير القانونية.
أنظر:
M. ABBAS, The Sudan, cit., p. 48

5 - S. El-BUSHRA, An Atlas of Khartoum Conurbation, Khartoum, 1976, p. 33.

ثلاثة مناطق رئيسية مرتبة بالتوازي في اتجاه الجنوب من الشاطئ الجنوبي للنيل الأزرق[6]:

حي المحافظة، مطلاً على النهر، بقصر الحاكم العام، الكاتدرائية، كرسي البعثة الكاثوليكية النمساوية[7]، مساكن الموظفين الأتراك والمصريين الكبار والأعيان من السكان- معظمهم أجانب، وقليل من السودانيين في قطع أرض صغيرة.

مكان السوق الكبير، حوالي ألف متر في العرض، قرب المسجد الكبير. في ذاك الوقت، كان الجزء الجنوبي من المنطقة طرفياً، وكان ذلك منطقياً إذ أنه مخصص لاستقبال القوافل التي ترد للمدينة.

المنطقة الثالثة كانت أحياء السكان المحليين، معزولة على طرف الصحراء، وكانوا يترحلون مشياً للمدينة للعمل في السوق ومكاتب الحكومة أو في حدائق المدينة، على نحو سيتم تكراره إبان الاحتلال البريطاني.

في هذا التشكيل لوجه المدينة، قُسّم السكان تبعاً لتدرج البعد من النيل، المصدر الوحيد للمياه وبعض الترفيه: يعيش المستعمرون قرب الماء والسكان المحليون على الطرف الآخر من المدينة تجاه الصحراء. وبمعايير علم الاجتماع الحضري، يمكننا القول بأن النموذج التركي- المصري قد تنبأ على نحو عام بالمخطط الكلاسيكي

---

6 - B. El TAYEB BABIKER, Khartoum: Past, Present and the Prospects for the Future, Durham, 2003, p. 13.

7 - ربما كان باذر دال بوسكو من إرسالية فيرونا الكمبونية يعمل في الكاتدرائية: عام ١٨٥٨، بما أنه كان تابعاً لاقليم لومباردو-فينيتو وفيرونا تابعة للإمبراطورية النمساوية الهنغارية



شكل١ – عاصفة 'هبوب' في الخرطوم. التقطت الصورة من سقف قصر الحاكم. (Source: SARSFIELD-HALL, 1975)

للعواصم الإفريقية خلال الفترةالاستعمارية.

كانت الخرطوم مدينةً للتِجارة والأعمال، كما ورد في الغازيتة وكما تؤكّد مساحةُ وموقعُ سوقِها الكبير. إضافةً لذلك، فموقع المدينة الاستراتيجي جعلها ملائمة تماماً لذلك الغرض. كانت تتمركز في قلب واحة، مباشرة على شمال منبسط الجزيرة وهو أخصب منطقة في القطر وعلى تقاطع محور الحركة الرئيسيين في القارة: المحور الشمالي الجنوبي ممثلاً في مسار النيل الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بقلب 'القارة السوداء' الذي كان لا يزال غير مكتشف بعد، والمحور الشرقي الغربي الذي يربط المحيط الأطلنطي بالبحر الأحمر. تتطابق هذه الخطوط مع مسارات التجارة التي استحوذ عليها الأتراك المصريون: التجارة في العبيد، الذهب، الصمغ العربي،

الصِّـبغة، العاج وريش النعام. بعض هذه السـلع، كان حكراً للدولة.

ومن عـام 1840، مع الإزالـة التدريجية للاحتكارات، أخـذت الخرطوم تجتذب أعـداداً متزايدة من الزوار من كل المشـارب: المثقفـون والصـحفيون، المكتشـفون والمبشـرون، الحجـاج والمرتزقـة، والنصـابون والمغامرون. وقد سـاعد خلو المنطقة من الجبال على تجوال البشر والبضـائع و كانت المحصـلة أن أصـبح السـوق في الخرطوم مرموقاً تماماً كمثيله في القاهرة. أكد هذا المستكشـف جوزيف هـ جـوري في عام 1853 عندما ألقى رحاله في الخرطوم خلال أسـفاره بحثاً عن منابع النيل الغامضة:

'إن بازار الخرطوم لا يمكن تجاهله. سـتجد هنا كل شئ يمكـن أن تجده في بازار القاهرة، رغماً عن أن الكميات أقل عدداً. الشـوارع والمتاجر كلها نظيفة جدا ويسـود نظام كامل هناك كما في كافة الحي، حيث أن لطيف باشا، رغم أنه ودود جداً، لكنه حازم جداً في تنفيذ القانون.

[. . .] السـوق جميل و"يمتلك" كل السلع التي "يمتلكها" سـوق القاهرة العظمـى، رغماً عن كـون الكميات أقل عدداً. السـوق والمدينة كلاهما نظيفان جداً ويعود ذلك لإدارة لطيف باشا الجيدة عندما عيّنه عباس باشا حاكماً على الخرطوم والسـودان، ذهب مـن فوره للخرطوم، عاصـمته ومسكنه، ووجدها قذرة جداً. كان أول قانون أصدر أن الخرطوم يجب أن تصبح جميلة، وأن لا 'يقتل' شـخص بقرة أو خروفاً في السـوق أو في الشارع، كما

كان يحدث سـابقاً، لكن أن يذهـب كلُ الجزارين لمكان معين 'لقتل' الحيوانات وإحضـار اللحم النظيف للسـوق وأن ينظف كل شـخصٍ فنـاءه كل يومٍ. ولكيما ينجح في نواياه فقد أوجب عقاباً بالسجن ومالاً يُدفع للقانون على كل أولئك المخالفين، كما شكّل عُصبةً من الرجالٍ تجول كل صباح حول المنازل والسوق لترى أنها نظيفة'[8].

كل الطـرق تؤدي للخرطوم، نقطـة التماس بين إفريقيا العربية المسـلمة وإفريقيا الوثنية لما جنوب الصحراء، رغماً عن كونهما لا يمكن تمييزهما تماماً[9]. وكانٍ يتوقف في الخرطوم خليط – بشري من التجار، لكن أيضاً الحجّاج في طريـقٍ العودة من مكـة (الفلاتـا)، وأحياناً لفترات طويلة نوعاً ما. لقد انتهى الوضع بكثيرٍ منهم كمقيمين في المدينة، مسهمين في صورتها المتروبوليتانية المتوسعة والمسـتمرة حتى اليوم بتوافد اللاجئين. وكان تشـغيل التلغراف والبريد بواسـطة الشركة الإيطالية الخاصـة بوسـتا يوروبيا[10] (أممت لاحقاً ورأسَها صاحبُها سابقاً جياكومو موزّي في نهايات السـتينات من القرن التاسع عشـر) قد جعل من الخرطـوم النقطة الأخيرة المنيعة في عالم الاتصالات مع العالم قبل الولوج في غموض 'إفريقيا السوداء' كما كانت تُدعى.

مدينة كوزموبوليتانية ومتعددة اللغات، يميّزها التسامح الدينـي، اسـتقرت في رحابهـا البعثـات الكاثوليكيـة

8 - J.H CHURI, Sea Nile, the desert, and Nigritia: travels in company with Captain Peel, R. N. 18511852-, London, 1853, p. 130.

9 - M. RAIMBAUD, Le Soudan dans tous ses états, Paris, 2012, pp. 2124-.

10 - R.L. HILL, Egypt in the Sudan 18201881-, London, 1959, pp. 129131-.

والمدارس المسيحية. وبعيداً عن الانطباع العام بالفقر والبؤس الذي تركته في نفوس معاصريها، كانت الخرطوم التركية المصرية أكثر تعقيداً من مجرد مدينة فقيرة وبائسة. ولفترة طويلة كان إسمها يستدعي دلالات سحرية بما لا تفعله إلا مدن إفريقية قليلة أخرى، كما كانت أهميتها الاسترتيجية لا تتوانى تجتذب اهتمام القوى الأوروبية. ونظرا للطبيعة الغريبة والمرتبكة للتمثيل الدبلوماسي لهذه القوى في السودان، فقد أصبحت المدينة مسرحاً لمؤآمرة عالمية واسعة.

وفي آخر عَقد للتركية، كانت هناك قنصليتان فقط في الخرطوم[11]: الإغريقية التي كانت ترعى شئون الجالية الإغريقية الكبيرة في السودان والقنصلية النمساوية الهنغارية والتي كانت أيضاً تمثل المصالح البريطانية، إذ أن القنصل النمساوي مارتن لودفيج هانسال كان أيضاً نائب القنصل البريطاني. نتيجة لذلك فإن كثيراً من الأجانب الذين كانوا يعيشون في العاصمة انتهى بهم الأمر لأن يصبحوا عملاء مخفيين للقوى الأوروبية. وحتى الخديوي المصري كان له شبكة من الجواسيس يخبرونه بانتظام عن تجني موظفيه على سكان العاصمة.

من حيث العمارة والتخطيط العمراني فقد كانت العاصمة التركية-المصرية مدينة عربية نمطية في الصحراء. تقع

---

11 - 'كانت هناك قنصليتان فقط عاملتان على نهاية سبعينات القرن التاسع عشر، هما القنصليتان الإغريقية والنمساوية/هنغارية. كانت الأولى ترعى بصفة أساسية مصالح التجار اليونانيين في السودان، والثانية كانت تمثل فرنسا أيضاً وبعد وفاة روزيت، مصالح ألمانيا وانجلترا'
A. MOORE-HARREL, Gordon and the Sudan: Prologue to the Mahdiyya 18771880-, New York, 2001, p. 21.

الخرطوم علـــى خط عرض36‘ ° 15 شـــ ، على الحافة الجنوبيـــة للصـــحراء ، وعلى خط طـــول 31‘ ° 32 ش .
ويتميز مناخها الاستوائي القاري ، خلال الصـيف من مارس/أبريل حتى نهاية يوليو ، بدرجات حرارة تتراوح مـــا بين° 45 و ° 47 مئويـــة ورطوبة تهبط إلى 13% .
خـــلال هذه الشـــهور كثيراً مـــا تكتنف المدينـــة الزوابع الترابية المسماة بالهبوب (شكل 1) ، التي تخمد بالتدريج مع انخفاض الحرارة خلال ما يســـمى بشـــهور الشتاء .
وفيما عـــدا القليل من حالات الهبوط في درجات الحرارة الدنيا حتى ستة درجات في ديسمبر ، تكون الحرارة عادة متراوحة مـــا بين 32° و 36° مئوية . الموســـم الممطر يمتد من منتصـــف يوليو لمنتصف ســـبتمبر تقريباً وقبل أعمـــال احتواء نهري النيل ، كانت هـــذه الأنهار عادة ما تُغرق أجزاءً من المركز الحضري . وعلى الأخص ، هناك منطقة شاسعة على يمين النيل الأبيض ، غرب الخرطوم ، كانت تَتعرض للغمـــر كل عام ، بما يحدّ من تمدد المدينة في ذلك الاتجاه[12] .

كانت شبكة الشـــوارع ، التي تُغيّر اتجاهها طوال الوقت أو تنتهـــي بحائط فجأة ، تشـــكّل متاهـــة معقدة ، هي تلك التي وصـــفها بادر دال بوســـكو (والتي يمكن مشاهدتها حتى اليوم في جزيرة توتي في منتصـــف المدينة) . كانت هذه هي الطريقة التي توصّـــل بها البشر لحماية أنفسهم من الصـــحراء المتناهية وهجمات هبوبها العاصف . كل البيوت العربية تُسوّر عادة بحوائط تَصدّ تقدّم الصحراء ، ويكون توجهها نحو الفناء الداخلي . أما الشـــبابيك التي تفتح ‘للخارج‘ ، فقليلة وضـــيقة وكثـــيراً ما تكون مغلقة

12 - S. EL BUSHRA, An Atlas, cit., pp. 2122-.

بالستائر[13].

تنسدح المدينة على وادي النِيل الخصِيب، على ترسبات طينية تصــل إلى ثلاثين متراً سماكة والتي، معتمِداً على مستوى الرطوبة، تتمدد أو تتكمش صانعة شقوقاً عميقة في الأرض. حدد هذا العامــل من نوع المباني النمطي، الذي تسـوده حتى اليوم مبانٍ منخفضة، عادة من طابق واحدِ[14].

في 1882، حــدث أمران تــركا أثراً دائمــاً على كينونة الخرطوم، الثورة المهدية في السودان التي أنهت الحكم التركي-المصري الفاســد[15]، واحتــلال بريطانيا لمصر مدفوعــة بالإنتفاضــات الوطنيــة[16]. بالرغــم من أنه

13 - حول العلاقة بين عمارة الخرطوم والصحراء، أنظر المقال البديع لـ
C. NORBERG-SCHULZ, Genius Loci: Paysage, ambience, architecture, Paris, 1977, pp. 116125-.

14 - S. EL BUSHRA, An Atlas ..., cit., p. 21.

15 - في ٢٩ يونيو ١٨٨١، نصب محمد أحمد بن عبدالله المهدي نفسه (مهدياً منتظراً) وشرع في تطهير الاسلام. ونادي حواريوه، الدراويش، الناس لرفــع السلاح علــى النظام التركي-المصري. هنــاك أدبيات كثيرة حول الثورة والدولة المهدية. أنظر، المؤلف الكلاسيكي ل ف. ر. ونجت:
F.R. WINGATE, Mahdism and the Egyptian Sudan, 1891, 2ed. Edition, with an introductory by P.M. HOLT, London, 1968; P.M. HOLT, The Mahdist State in the Sudan 18812 ,1898-nd. Edition, Oxford, 1970, and F. NICOLL, The Mahdi of Sudan and the Death of General Gordon, Stroud, 2004,
حيث هناك إشارات لمراجع أصلية

16 - تدخل البريطانيون في مصر لحماية مصالحهم في القنال عندما هددتهم ثورة الجنرال عرابي الوطنيــة. ولم يكن احتلال مصر جزءاً من خطتهم الأصلية مباشرة لكن استلزمته سلسلة من الظروف غير المتوقعة أنظر
H. WESSELING, Le Partage, cit.,)
وأيضــاً بعض الأخطاء الدبلوماسية. هــذا ما نحصل عليه من إفادة إيفيلين بارنج لورد كرومر، القنصل العام البريطاني في القاهرة، في كتابه
Modern Egypt, London, 1908, vol 1, pp. 254331-,

لم تكن هناك علاقة سبب ونتيجة بين حركة الوطنيين المصريين والثورة السودانية، تعاطفت الحركتان وكان مقدوراً عليهما أن تتقاطع مساراتهما. وفي الحقيقة، اقتربت قوات المهدي من العاصمة بعد ثلاث سنوات من الانتصارات العسكرية، فطلب الخديوي المصري توفيق العون من البريطانيين الذين كانوا يحتلون بلده آنذاك. وبعد حصار درامي طويل، واكبته الصحافة البريطانية يوماً عن يوم، سقطت الخرطوم في 25 يناير 1885، على يد الدراويش.

أُغتيل الجنرال غردون الذي كان قد أُرسل بواسطة جلادستون لينظم انسحاب العسكريين والمدنيين من المدينة لكنه على النقيض عاند رئيس الوزراء ونظم المقاومة مدفوعاً بتأثير من الأقلية الإمبريالية للحكومة الليبرالية[17]. وجاء موته كصدمة للرأي العام البريطاني، حتى أن الجدال الذي أعقب ذلك حول الإخفاق في دعمه

وانظر الطبعة المعادة

New York, 2001, vol. 1, pp. 254331-.

وتحت سيطرة بريطانيا العظمى كأمر واقع، ظلت مصر بعرف القانون ولاية عثمانية حتى ١٩١٤، عندما انضوت تركيا تحت الحلف الثلاثي، أضطر الإنجليز لإعلان فرض حمايتهم على مصر.

17 - L. STRACHEY, Eminent Victorians, London, 1918, pp. 257262-.

كانت صورة غردون موضوعاً لكتابات جمّة رفعته لمرتبة القدّيسين. على العموم بعض الأشخاص شاركوا جلادستون في تحفظاته حول شخصية غردون وعلى جدوى بعثة الانقاذ. كرومر، القنصل البريطاني لدى القاهرة، الذي كان يتمتع بصلاحيات واسعة وكان البطل السياسي المدافع عن حق بريطانيا في مصر، كتب يقول: 'بإعادة النظر لما حدث، بعد مرور عدة سنوات، هناك مسألتان واضحتان في ذهني. الأولى أنه لم يكن مفترضاً أن يُرسل أيَّ بريطاني للخرطوم. الثانية هي: لو تحتّم إرسال أي شخص، فإن الجنرال غردون لم يكن الشخص المناسب الذي يرسل':

E. BARING, Lord CROMER, Modern, cit., p. 428.

تسـبب في انهيار الحكومة: وقد أُجبر جلادستون، الذي اعترف صراحة بحق السـودانيين في حريتهم[18]، على الاستقالة[19].

منذ ذلـك الوقـت، لم تعـد بريطانيـا الفيكتورية تنظر للخرطوم كمخلب صـغير في الرقعة الشطرنجية العالمية للتهافت علـى إفريقيا. بل أصـبحت المدينة تمثل جرحاً عميقاً في ضمير الأمة التي، على أعقاب نظريات تحسين النسـل والداروينية الإجتماعية، كانـت تعتقد أنها تنتمي لعرق متفوّق[20].

18 - أعلـن جلادستون أمـام مجلس العموم: 'نعم، يناضـل أولئك الناس ليصبحوا أحرارا، ومن حقهم أن يناضلوا ليصبحوا أحرارا'
L. STRACHEY, Eminent, cit., p. 65.

19 - المسيحـي والمدافع الصلب عـن المعدمين، غردون، ناضل طويلاً لمنع تجـارة الرقيق. ولما كانـت انجازاته بينة عالمياً وكان نجمـاً في بلاده، فقد أصبح بطلا فيكتوريا. ولقد استثمر ساليزبوري والمعارضة المحافظة نهايته الأليمة وأججوا حملات قوية لاغتيال شخصية جلادستون. أنظر:
SEBE, Porte-drapeaux de L'Empire, cit., p. 87.

20 - فلنذكر نصّين، نشرا في لندن عام ١٨٨٣، وجهها تعاطف الطبقة العليا في بريطانيا تجاه الإمبريالية. كان الكتاب الأول بواسطة ف. جالتون
F. GALTON, Inquires into human faculty and its development:
الذي وضـع الأساس الآيديولوجي والتبريـرات العلمية لنظريات تحسين النسل والداروينيـة الجديدة، بينما كان مشغولاً بفتـور النُخب الفيكتورية في مواجهة التحـوّل التدريجي للسكان الحضر إلى عمّال بروليتاريا نتيجة للثـورة الصناعيـة. إضافة لذلك، كان جالتون يرغـب في سيطرة الدولة علـى الوضع الديموغرافي، كمثال بتنظيم الزواج، بما يضمن استمرارية إنتـاج أفضل العناصـر الإجتماعية. أثـرت هذه الأفكار علـى السياسات السكانيـة فوراً في مستعمرات بلدان أخرى مثل إيطاليا. وعن المستعمرات الإيطالية في شرق إفريقيا أنظر:
G.L. PODESTA, Le citta dell'Impero. La fondazione di una nuova civiltà italiana in Africa orientale, in "Città e Storia", vol. 1. 2009, pp. 111-135. أنظر أيضاً:
G.L. PODESTA, Colonists and "Demographic" Colonists, Family and

وعلى الجبهة المقابلة، كانت محصلة الثورة المهدية، بالتحديد إنشاء كيان سياسي وطني فوق القبلية، ومستقل، بكلمات أخرى مشروع دولة (على حد تعريف نيكول جراندين)[21]، على رغم أنها كانت دولة ثيوغراطية - دينية - إلا أنها أفصحت عن كل سمات الدولة الحديثة، وبقيت حتى اليوم مصدر فخر للشعب السوداني ومرحلة حاسمة في الذاكرة التاريخية للعديد من حركات المقاومة السوداء في القرن العشرين.

يجب أن يؤخذ هذان العاملان في الحسبان من أجل فهم المغزى الحقيقي والمعنى الرمزي لإعادة إنشاء الخرطوم بواسطة البريطانيين بعد ثلاثة عشر عاماً من هجرانها إبان الثورة المهدية. المهدي، الذي عاش بعد النصر

Society in Italian Africa, in "Annales de démographie historique", 2011, n. 2, pp. 205231-.

المطبوع الثاني كان بواسطة:

J.R. SEELEY,

المحاضر في التاريخ الحديث بجامعة كمبردج:

The Expansion of England, a true jolt of English pride,

كانت قد طبعت منه خمسمائة ألف نسخة. وعلى عكس العنصرية الفرنسية التي أكدت على الفارق الثقافي بين المستعمرين والمستعمَرين، ركزت العنصرية البريطانية على الفوارق الوراثية، أنظر:

A.J. NJOH, Planning Power. Town planning and social control in colonial Africa, London, 2007, Preface, p. IX.

أعلن شامبرلين نفسه: 'إن العنصر البريطاني لهو أعظم قوة حاكمة يعرفها العالم على الإطلاق'. أنظر:

T. ROYLE, The Kitchener Enigma, London, 1985, p. 145.

بالتالي، وبينما يؤمن الفرنسيون بإمكانية التكامل بعد تجاوز الفارق الثقافي، إعتقد البريطانيون أن هذا غير وارد على الإطلاق.

21 - N. GRANDIN, Après Le Mahdi: La politique coloniale chez les pasteurs arabes soudanais, "Cahiers d' études africaines" 1978, vol. 18, 6970-, pp. 123158-.

خمسة أشهر فقط. فضّل المدينة المجاورة، أم درمان، كعاصمة لهُ. ودمّر خليفته الخرطوم باعتبارها رمزاً للحكم التركي-المصري البغيض، واستخدم أنقاضها لبناء المباني الجديدة في أم درمان، تماماً كما فعل الأتراك المصريون مع سنار، عاصمة سلطنة الفنج. وهكذا، فقدت الخرطوم الفرصة التاريخية لأن تصبح عاصمة الدولة المستقلة.

انتهزت بريطانيا الفرصة عندما استعانت بها إيطاليا (وكانت الأخيرة قد هُزمت في عدوا 1896) للقيام بمناوشات على حدود إثيوبيا. وكانت تلك فرصة انتظرتها بريطانيا طويلا لتستعيد السودان ولأن تمسح العار الذي خزيت به. وعلى رغم اعتراضات الخديوي المصري، الأنجلوفوني المتعصب الذي لم ترُق له فكرةُ معاونة الإيطاليين، تحركت وحدةٌ مصرية من ثمانية عشر ألفَ مصري يرأسهم رسميون بريطانيون، ممولة أساساً من مصر، نحو دنقلا في 12 مارس 1896، مستهدفة هجوماً سرياً لأم درمان، عاصمة الدولة المهدية.

وبفضل الدور الجديد للمراسلين الحربيين، والذي ابتُدِع أثناء حرب القرَم، تابع الرأي العام البريطاني الحملَة بأنفاس متهدّجَة، وفوراً تحوّل المارش الطويل، في أحر صحراوات العالم، إلى أغنية بطولية وهللوا لكتشنر كبطل قومي حتى قبل أن يلتحم بالعدو ويحقق النصر، على عكس الأبطال الكلونياليين الآخرين الذين اصبحوا أبطالاً فقط بعد أن حققوا ظفراً.

ضمت البعثة جورج وارينجنتون ستيفنس، مراسل الديلي ميرور، الذي كان يبعث أخباراً يومية من الجبهة، والمراسل الشاب تشيرشل، الذي استغل دون

خجل صــلات أمّه الرفيعةَ لكي يُضــم للفيلق الاسطوري الحــادي والعَشريــن (الرمّاحينِ)، كان يرســل تقاريره 'بريد الصــباح' بواقع 15 جنيهاً للعمود[22]. وعندما نشر ستيفنس 'مع كتشنر للخرطوم'، في 1826، سجل كتابه على الفور أفضــل المبيعات: 237،812 نسخة بيعت في أقل مــن عامــين. كان الناشر بــلاك وود، الإمبريالي المتعصّــب ورجل الأعمال الذكي، الذي اشتمّ الفقة على الفور. كتب لكريستين ستيفنس قائلاً: 'هذه المرة سوف نقتحم السوق'[23].

سقطت أم درمان في صبيحة 2 سبتمبر 1898 بعد المعركة التي اشــتعلت فجرا. كتشــنر، القائد الأعلى، (سردار) للجيش المصري والمعين حديثاً الحاكم العام للســودان، وســم دخول قواته إلى ام درمان بسلسلة من الإشارات الرمزيــة: قداس جنائــزي مهيب لغــردون وحملة جمع تبرعات لإنشاء كَلية غردون، افتتحها بسلسلة من اللقَاءات في أعــرق الجامعات البريطانية حيــث عبر عن منظوره الشخصي نحو مهمة الجنس البريطاني الرسالية في نشر الحضــارة، كذلك اختياره للمدينة المجاورة، الخرطوم، لتصبح عاصمة المســتقبل الكلونيالية. كانت هناك ثلاثة عوامل ترجــح اختيار الخرطوم: موقعهــا الجغرافي عند ملتقــى النيلــين الأزرق والأبيضــ، وجزيــرة توتي في المنتصــف، ســوف يســهّل نقل مواد البناء والأنقاض. وفي الواقع فإن المدينة التي هُجرت لسنواتٍ عديدة كانت قد تحولت إلى ركام بشــكل لا يتطلــب جهداً في الهدم ولا الترميم ولا تضمين الجزء القديم من 'المدينة'، كما تعين

22 - P. WARNER, Kitchener: the Man Behind the Legend, London, 1985, P. 91.

23 - B. SEBE, Porte-drapeaux de l'Empire, cit., p. 86.

على لياوتي فيما بعد في الرباط، لكن فوق كل شئ، فإن بناء الخرطوم الجديدة وفق نموذج أوروبي وعلى مسافة بهــذا القرب من أم درمان، لا بد أن يُســبغ على المدينة الأخرى ذلك التعبير المجازي - 'علمٌ مغروسٌ في الأرض بيد المنتصر'. إن غرس نموذج أوروبي حضري في بيئة استوائية قد جرى بطريقة معقمة بصورة استثنائية كأنها جرت في 'مختبر'. في 1910 عُرضــت الخريطة الشهيرة في مؤتمــر جمعية المهندســين المعماريين (RIBA) في لندن. يستحق هذا المؤتمر بعض الكلمات من أجل تأطير تجربة الخرطوم في الســياق العام للتخطيط الحضري في أوائل القرن العشرين.

مستلهمين تقاليد رفقائهم في القرن التاسع عشر (أطباء، علماء صحة وعلماء ديموجرافيا) في الاجتماع على نحو منتظم في مؤتمرات عن الصحة والسكان، شعر المعماريون ومخططو المدن في بداية القرن العشرين بالحاجة لأن يتنظموا ويتفاكروا، ليس فقط لتبادل الأفكار، لكن أيضاً لإعادة تعريف دورهم وتصنيفهم القائم آنذاك باعتبار المعماريين 'فنانين' والمهندسين 'فنيين'[24].

جرى المؤتمر الذي نظمته ريبا، بمبادرة من الوزير جون بيرنز، النقابي السابق ومؤلف لائحة الإسكان وتخطيط المدن 1909 (التي ألغت ضمن أشياء أخرى بيوت الطبقة العاملة غير الصحية 'المتلاصقة بالظهر')[25]، - في 10-15 أكتوبر 1910، مجتذباً جمهوراً بلغ تعداده حوالي ألف وأربعمائة شخص من كلا المهنيين والهواة. ولقد تحوّل المؤتمر، الذي انعقد بهدف أساسي، هو الترويج لمنجزات التشريعات البريطانية في مجال تخطيط المدن والتخطيط الصحي، تحول سريعاً لمناسبة عالمية. وعلى رغم أن معظم المؤتمرين كانوا بريطانيين في

---

24 - D. WIECZOREK, Camillo Sitte et les débuts de L'Urbanisme Moderne, Paris, 1981.

25 - بُنيت هذه المساكن أواخر القرن الثامن عشر غالباً على أراضي مُلّاك في أطراف برمنجهام، ليدز، نوتنجهام وكانت المساكن غير صحية نظراً لسوء تهويتها، فثلاثة من الحوائط الخارجية مشتركة مع الجيران وليست لها أية أبواب أو نوافذ. لمزيد من التفاصيل أنظر:

W. BERESFORD, Time and Place. An Inaugural Lecture, Leeds, 1961.

غالبيتهم لكن المؤتمر ضـــم معماريين ومهندسين أجانب مرموقين مثل الألمانيين برنكمان، شـــتوبن، إبرشتات (ولا ننســـى أن الأخير شارك في مسابقة برلين العظمى) دانيل بيرنهام من الولايات المتحدة، الذي صـــمم مخطط شـــيكاغو، لويس بونير وإيوجين هينارد من فرنســـا، هذا دون أن نذكر الأطباء وعلماء الصـــحة والرســـامين والصـــحفيين والسياســـيين. ولقد دللت مشاركتهم على منهج المؤتمر المتعدد التخصصـــات والذي يتخطى حدود الدولة، كمدخل لقضـــايا الإضـــمحلال الحضـــري نتيجة التضـــخم السريع والفوضـــوي للمدن على أعقاب الثورة الصـــناعية. كان مؤتمر لندن، وهو الأول في سلســـلة متواصـــلة لم تقطعهـــا ســـوى الحرب، كان هـــو البداية الضـــبابية التي قادت لتأســـيس التخطيط الحضري كعلم قائم بذاته، لغةٍ مشـــتركةٍ تجمـــع رؤىً مختلفة ومواقف مختلفة.

كان المخططـــون الحضريـــون البريطانيـــون والأجانب كلاهما منقسمين لجبهتين أساســـيتين: الأولى تتبع تقليد مدرســـة البوزار في التخطيط المحـــوري، الذي يدعمه الإنجليزي شـــارلس ريلي ومدرســـة شيكاغو ممثلة في دانيال بيرنهام، أما الجبهة المضادة فتضم أنصار كاميللو ســـيتي، مثل الألماني رودولف إيبرشـــتات والانجليزي ريموند أنوين وبالطبع إيبنيزر هوارد، مؤســـس حركة المدينة الحدائقية. وبينمـــا قد يكون من المغالاة الحديث عـــن تضـــادات آيديولوجية، كان المؤتمـــر على العموم موســـوماً ببعض التوجســـات. تنظيم فراغي يقوم على تخطيط محـــوري يعكس علاقة الشـــكل والخلفيـــة ويبدأ

بتصـــميم الشـــوارع ثم بعد أن يواصـــل في الهدم والنزع يشـــرع في حشر المنازل فيما يتبقى من الخلفية. ألا يعبر هذا عن قوة مستبدة؟ 'في مناخنا الديمقراطي لا يسعنا أن نقـــوم بأي مغامرة'، يجيب بيرنهام على الشـــخص الذي أثار هذا الإعتراض[26].

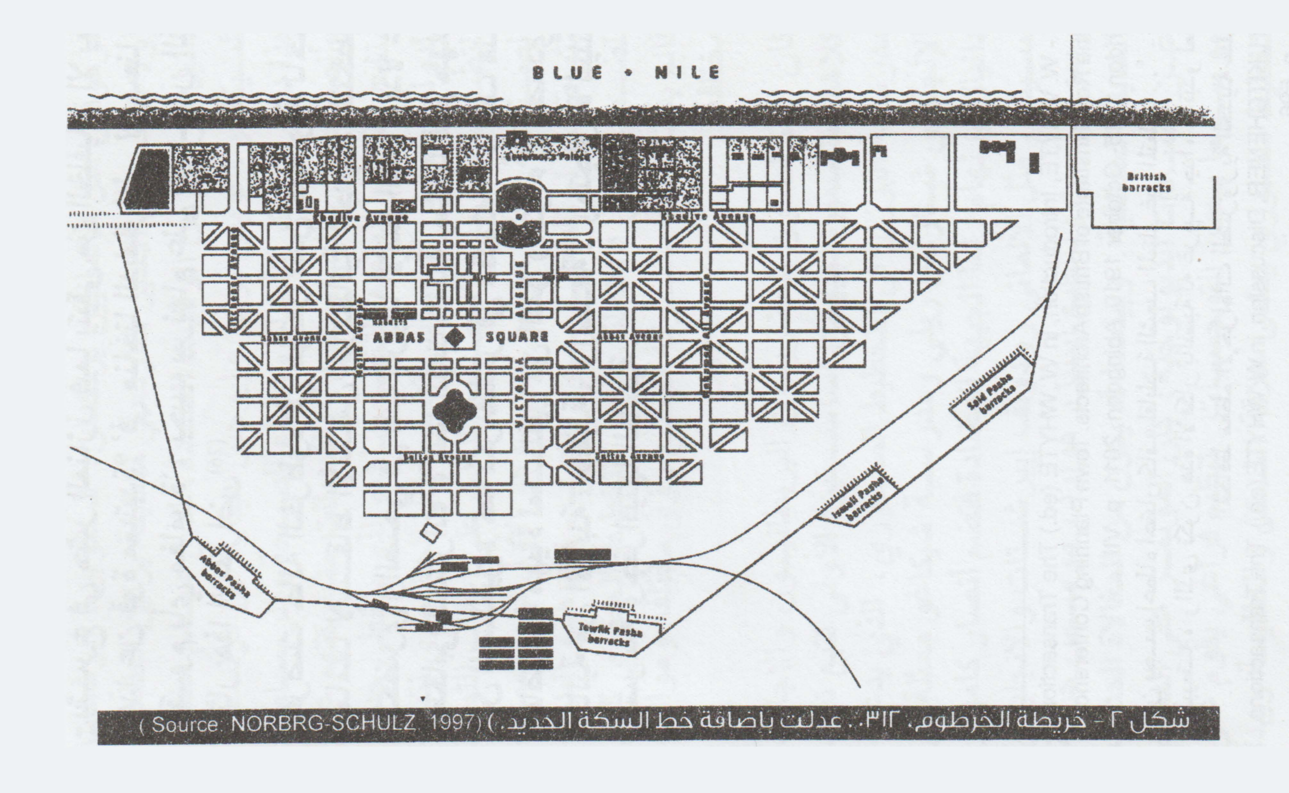
عُرضت حالة الخرطوم في مؤتمر لندن كمحاولة ناجحة تمامـــاً لإســـقاط الأســـس البريطانية الجديـــدة للتخطيط الحضري والصحي في قلب إفريقيا الإستوائية. وبدلاً عن 'مخابئ للحشرات' وعشوائيات بائسة يسكنها قوم جهلاء من المسلمين، كما ذكر كتشنر في مقدمته[27]، تقف هناك عاصـــمة مهيأة لمســـتقبل من النمو والثراء الاقتصادي، خالية من الأوبئة، جميلة، واســـعة، ومتجاوزة لبيئتها الشرسة وجغرافيتها القاسية.

---

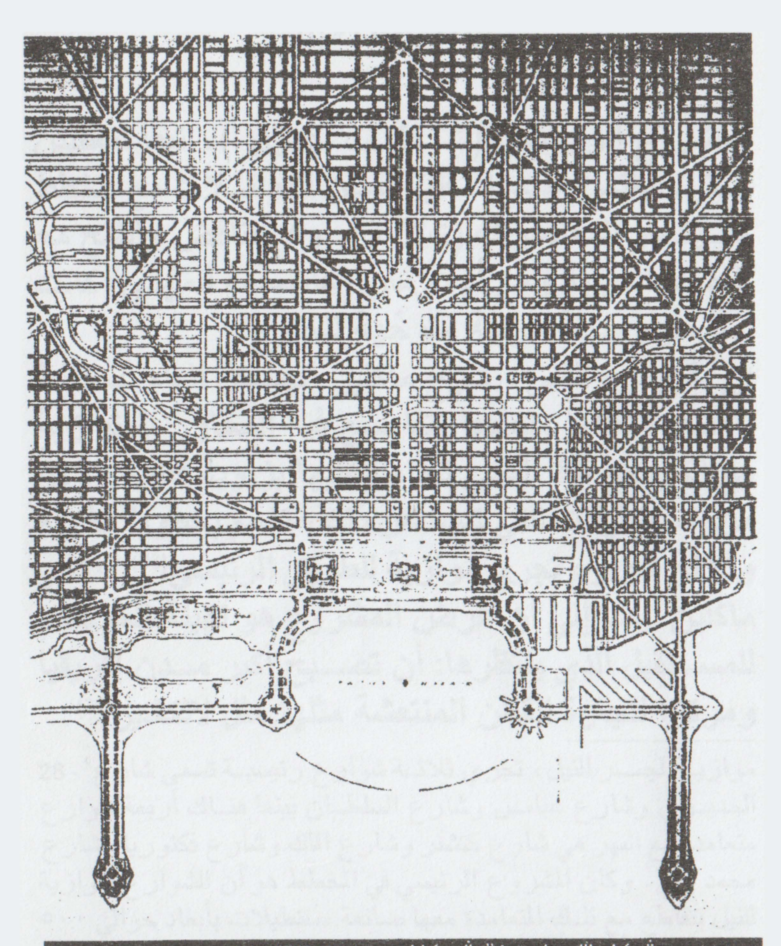
26 - W. WHYTE, Introduction, in W. WHYTE (ed.) The Transactions of the Royal Institute of British Architects. Town Planning Conference. London 1015- October 1910, Abingdon, 2011, p. VII.

27 - 'كان يجـب إعطاء اعتبار كاف لقابليـة الشعب المسلم غير المتعلم... بطبيعتـه، والذي تكون هذه الأفكار بالنسبة له غريبـة جداً، إذ تبدو لعقله المحافظ معظم الإجراءات الضرورية الحديثة منفرة'

H.H. KITCHENER, Discussion, in W. WHYTE (ed.), The Transactions, cit., p. 596.



شكل ٢ - خريطة الخرطوم، ٣١٢.، عدلت بإضافة خط السكة الحديد. (Source: NORBRG-SCHULZ 1997)



شكل ٣ - خريطة شيكاغو . (Source: WHYTE, 2011)

الخريطـة:
شبكة الطرق

المشروع الرئيسـي (شـكل 2، جدول أ)، تبعاً لمعقبين كُـثُر، يعكس عـددا معتبرا مـن التماثـلات مع مخطط شـيكاغو المعاصر له (شكل 3). وفي تناقض واضح مع المدينة العربية ومع أم درمان (عاصـمة المهدي) كانت الخرطوم مدينة غربية متوجّهة للخارج.

في تقريـره الفني، شرح ماكلين الهيـكل العام للمخطط باعتباره نظاماً متعامداً تتقاطـع فيه المحاور المتوازية مع النيل مع تلك التـي تتعامد عليها بزاوية قائمة. وكل من المستطيلات التي تنشأ عن ذلك، تُقسّم بخطوط قطرية وثلاثة شوارع تجري موازية للطريق الرئيسي[28]. أشار ماكلين أيضا إلى أن غرض المشروع هو تهيئة الخرطوم للمسـتقبل الذي ينتظرها: أن تصبـح أكبر مـدن إفريقيا ومركزاً لتجارة القطن المنتعشة مثلها مثل لانكشير[29].

28- 'موازيـة لجسـر النيل، تجري ثلاثـة شوارع رئيسيـة تسمى شارع الخديـوي وشارع عباس وشارع السلطـان بينما هنـاك أربعة شوارع متعامدة مع النهر هي شارع كتشنر وشارع الملك وشارع فكتوريا وشارع محمد علي. وكان المشروع الرئيسي في المخطط هو أن الشوارع الموازية للنيل تتقاطع مع تلـك المتعامدة معها صانعة مستطيلات بأبعاد حوالي ٥٠٠ يـاردة مربعة تقريباً. ويُعاد تقسيم هـذه المستطيلات بثلاثة شوارع تجري موازيـة للشـارع الرئيسي وبشـوارع قطرية تصل تقاطعـات الشوارع الرئيسية'.
W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum and Omdurman, in W. WHYTE (ed.) The Transactions, cit., p. 586

29- 'لكـن يوماً ما ستُصبـح الخرطوم أكبرَ مدن إفريقيـا ومركزاً عظيماً لتجـارة القطـن، لأن السودان قـادرٌ على أن يصدّر معظـم القطن الذي تستهلكـه لانكشير، لذلك صممت المدينة بالنظـر لتطورٍ مستقبلي من هذا النوع'.

وبالفعل، فإن أول ما يثير الانتباه هو النظام المتعامد الذي وصفه ماكلين (شـكل 4، جدول ب) وبالشوارع الكبيرة الشريانية السـبعة (أربعة على الإحداثي السيني وثلاثة على الصـادي) كما جاء في التقرير. شارع فيكتوريا هو المحور الرئيسـي، ليس فقط لاتسّـاعه الملحوظ بمائة وثمانين قدماً أي حوال 54 متراً، لكن بصفة أساسية لأنه ينتهي عند القصر حيث يشهد الناظرُ المشهد الأخّاذ جنوباً عبر ميادين الحدائق وميدان عباس[30]. ولو كانت شبكة شـوارع الخرطوم بديعة بسبب عدد وسـعة شوارعها (كلها ما بين 180 و120 قدماً في العرض)، فإن تكلفتها الهائلة (فقط رصف الشوارع سـبّب إشكالات مالية[31]) يبررها المستقبل الزّاهي الذي خُطط للعاصمة.

قراءة الخرطة، على العموم، تكشف عن عدّة اختلالات. الأولي هـي توالي تقاطعات مسـتمرة على شـكل 'رِجل الغُراب'، أي مربع مركزي، دائري في هذه الحالة، تَشعّ منه ثلاثة أو أكثر من الشوارع بشكل الشجرة في كل اتجاه. إنه لمـن الغرابة أن يؤكد ماكلين على جدوى الشـوارع القطرية في تسهيل الاتصال بين أطراف المدينة المختلفة، وأنه لا يرى مشـكلة أخرى في تقاطعات الشوارع سوى أن كتل المباني بشـكل ما تُثقل على المنطقة السكنية[32].

W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 585

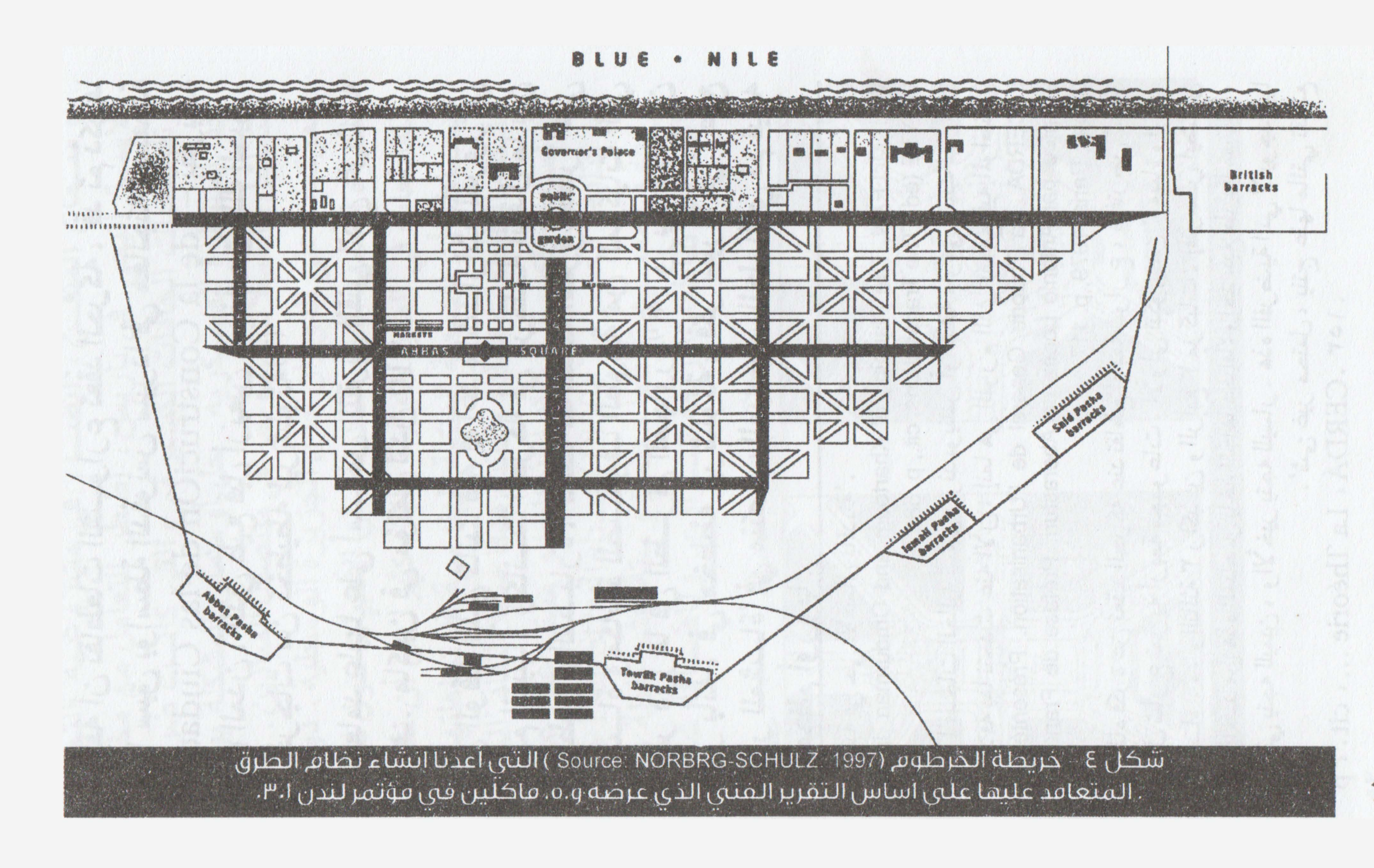
30 - شـارع فيكتوريا، الأكثر أهميةً، عرضُـه ١٨٠ قدماً ويتمركز على' ... القصر والذي يبدأ منه مشهدٌ مؤثر يمتد بعيداً للجنوب'.

W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 586

31 - نظـراً للتكلفة المتوقعة لإنشاء وصيانة مساحة هائلة من الشوارع بهذا' القدْر، فقط الثلث الوَسَطي من الشوارع تمّ رصفه في الوقت الحالي'.

W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 587

32 - الشوارع القطرية لا شك أنها اتصال مباشر مفيد بين النقاط المختلفة، ' لكن عند تقاطعها فهي تنتج قطع أراضٍ قميئة، والتي هي نوعاً ما غير



شكل ٤ - خريطة الخرطوم (Source: NORBRG-SCHULZ. 1997) التي أعدنا إنشاء نظام الطرق المتعامد عليها على أساس التقرير الفني الذي عرضه و.ه. ماكلين في مؤتمر لندن ١٩٠٣.

حقيقة أن تقاطعات الشـوارع تعقّد الحركة، قد تم ذكرها فيما سبق بواسطة إلدفونس سيردا في معالجته المتعمقة نظريـة - de la ConstruciÓn de las Ciudades بناء المدن، الذي طبع قبل أربعين سـنة من ذلك الحين، كمخرجات من تخطيطه لبرشلونة[33].

المتعامد عليها على أسـاس التقرير الفني الذي عرضـه و. هـ. ماكلين في مؤتمر لندن 1910.

وفي الوقت الذي كانت فيه قواعد وإشـارات المرور في علـم الغيب، وكانـت الحركة في مرحلـة انتقال ما بين الحنطور والسـيارة، كانت تقاطعات الطرق خطراً على المشـاة ومكابدة للصـفوف الطويلة من المركبات التي تنتظر دورها في الطـرق المجاورة[34]. وربما يجدر أن نذكر بأنه، في مخططه لبرشلونة، فكر سيردا في وضع 'جزر للمشـاة' في منتصف الميادين، الحل الذي تم تبنّيه في معظم أوروبا.

مناسبة في حي الأعمال بالمدينة'.

W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum and Omdurman, in W. WHYTE (ed.) The Transactions, cit., p. 586.

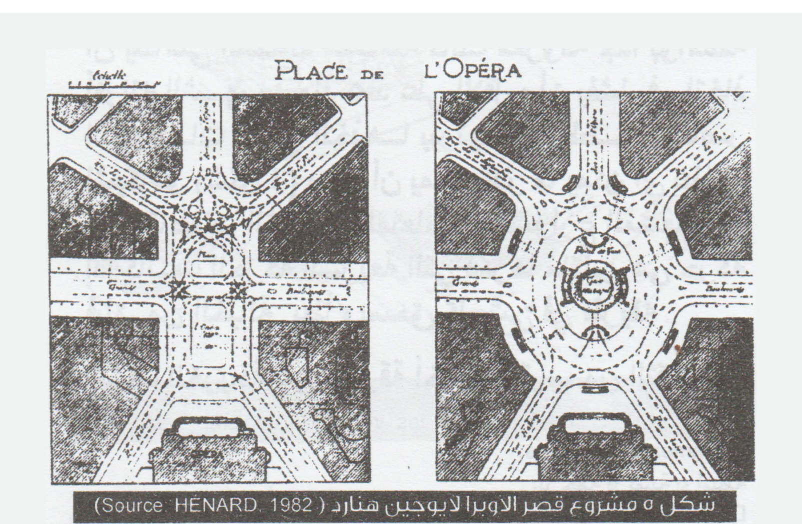
33 - 'هـذه الفسحات الخالية تسمّى روند بوينتس أو أمكنة، وهي ليست لها علاقة بما نتحدث عنه الآن، إنما هي الفورَم الذي يتجمع فيه المواطنون'

I. CERDA, La Theorie General de l'Urbanisation. Présentée et adaptée par Antonio Lopez de Aberasturi. Préface de Francoise Choay, Paris, 1979, p. 117.

34 - 'لإعطاء فكرة عن تعقيد الحركة عند تقاطع أربعة شوارع، فلنفترض أن كل شارع تمر به أربعة مجموعات. الأولى تتكون من ٣ مشاة والثانية ٣ مشـاة . . . والثالثة ٣ راكبـين والرابع ٣ مركبات. إفترضـ أيضاً أن كل واحـد من هذه العناصر يأخذ اتجاهاً مختلفاً: واحد يتبع طريقاً مستقيماً، الثـاني يتجه لليمين، والأخير يتجه لليسار. هذه الفرضية التي لا يوجد فيها شئ غير محتمل، ينتج عنها مائتي تقاطع'.

CERDÁ، La Théorie ...، cit.، p. ١٥٣.

أوسمان المتقن، أيضاً، في مشروعه 'التجميل الاستراتيجي' في باريس، أضطر للتعامل مع مختنقات وتقاطعات الجادّات الكبيرة، والتي كانت ضرورية جداً للسيطرة العسكرية. حلّ أوسمان المشكلة بوضعه التّماثيل والمسلّات والنّوافير في منتصف الميادين. مُجبراً المركبات على الدوران حول الجزيرة الوسطية، دون أن يشوّه المشهد العظيم للمدينة. إن الأدبيات حول تخطيط التقاطعات في المدن متوفرة وأكثر كثيراً مَن أن نفترض ببساطة أن الجمعية الملكية الهندسية قد تجاهلتها. إن مشكلة التقاطعات معقّدة وكانت هدفاً سهلاً لنقّاد 'الخرطة الرسمية الكبيرة'. ولقد أخذ كاميللو سيتي على عاتقه، في كتابه ' العمران' Der St¨adtebau (1889) حوالي أربعة وخمسين تقاطعاً محتملاً وستة عشر نقطة عَسرة ناتجة عن تقاطعات أربعة شوارع. وبإضافة شارَع



شكل ٥ مشروع قصر الاوبرا لايوجين هنارد (Source: HÉNARD, 1982)

واحد، زادت التقاطعات إلى مائة وستين[35].

إن الخطـأ البيّن في تخطيط الخرطوم هو أن نقاط التقاطع بين الشوارع القطرية والشوارع المتعامدة جُعلت متطابقة (الشـكل 2، جـدول أ). وكنتيجـة لذلك فإنَ الشـوارع المشـعّة من 'رجل غراب' واحدة ليست ثلاثة بل ثمانية، الشئ الذي يقود إلى نتيجة مربكة من التقاطعات المحتملة بحساب سيتي.

حقيقة أنه كانت هناك سيارة واحدة في العاصمة في العام 1907، أي عربـة الحاكم العام (والتي ترك لنا منها 'ر. كولينز' صورة فتوغرافية[36])، لا تشرح الأمر، إنما في الواقع تعقده أكثر، إذ أن المركبات التي تجرها الحيوانات أطول وأبطأ وأثقل من المركبات ذات الموتور. ولو كان الغرض هو تأمين الاتصال السريع، سيكون من الغرابة أن يتناسى المخطط مشـكلة كانت معروفة جداً بواسطة أقرانه الشـهرينَ منذ عقد على الأقل وأن يفشل في اتخاذ التحوّطـات التـي اتخذهـا بيرنهام لمخططـه المعاصر لشيكاغو (شكل 3) وهي أن يمنع بقدر ما يمكن أي تطابق بين تقاطعات الشوارع المتعامدة والشوارع المشعّة، إلا إذا كانـت الحركة السريعة التي ذكرها ماكلين هي حركة فيلق منّ الخيّالة. يطأ ويسحق كل شئ في طريقه.

تكشف الخريطة عن مفارقة أخرى بالقرب من التقاطعات

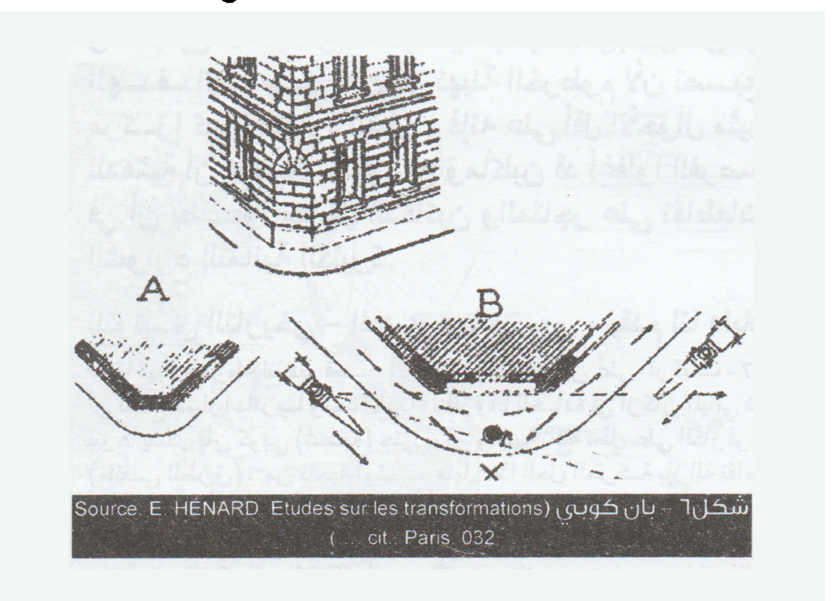
35 - C. SITTE, L'Art de bâtir les villes. L'urbanisme selon ses fondements artistiques,

ترجمة فرنسية بواسطة:

D. WIECZOREK, Paris, 1996, pp. 100104-.

36 - G. S. SCHOTTLER, The genial Barons, in R. O. COLLINS, F.M. DENG (eds), The British in the Sudan. The Sweetness and the Sorrow, London, 1984, facing P. 122.

حيث تقسّــم الشوارع المتضامّة مســاحاتِ الأرض بينها إلى مثلثات. لذلك تأخذ معظم المباني علىَ الأركان شكل الإســفين وتنتهي بزاوية حادة في الميدان المســتدير، ويكون على المرْكبات، التي تود أن تواصــل في الشارع المقارب، أن تلتفّ بزاوية 45 درجة مما يستلزم سلسلة مــن المحاولات المعقدة. أكثر مــن ذلك لا يكون بمقدور أيّ مســكن أن يفتح على الميــدان ولا أي متجر أن يفتح أبوابــه علَيه. أي إثارة تحملها هذه التقاطعات لشــخص يتجــول في شــوارع المدينة؟ ربما كانت هــذه هي 'قطع الأراضــي الغير ملائمة' التي عناهــا ماكلين. لقد كانت هذه المشــكلة المعروفة جيدا هي موضــوع للمناقشــات



شكل٦ - بان كوبي (Source E. HENARD Etudes sur les transformations ... cit. Paris 032)

والجدال بين المدرســتين الفكريتين الأساســيتين التين تشــاركتا الســاحة في القرنين التاسع عشر والعشرين. هل يمكن ببســاطة اختزال الميدان لعملية تصميم طرق؟

لفراغ بدون جماليــات، متروك للحركة، وبالـتأكيد خال من أي أغراض معيشية، إجتماَعية، تجارية أو ترفيهيةَ؟ أم يستطيع فوق ذلك أن يخدم كنقطة تلاقي وتبادل؟

كان إيوجين هنارد، الذي شارك في مؤتمر لندن بورقة عن مدينة المسَتقبل، قد اقترح حلاً في كتابهEtudes sur le transformation de Paris، et autres ecrits sur l'urbanisame وكذلــك في خطته للتصــميم الجديد لقصر الأوبرا في باريســ 1906، اختراع تقاطع 'ملتقى الطرق' (الكارَفور) - والبان كوبي (الشطفيّة) (أشكال 5 و6)[37].

واضــعين الاعتبــارات الجمالية جانبــاً، وبافتراض أن الهــدف الأساســي كان هو تهيئة الخرطوم لأن تصــبح مركــزاً كبيراً لتجارة القطن، فإنه على أقل الأحوال مثير للدهشة أن كتشـــتر وجورنج وماكلين قد أغفلوا الفرصة في أن يضــعوا مداخل الدكاكين والمتاجر على تقاطعات الشوارع الثمانية الكثيرة.

التوثيــق التاريخي - المدعوم بالصــور - يقدم لنا دليلاً

37 - تبعــاً لهذه الخرطة لتنظيم قصــر الأوبرا (شكل ٥) كان على المركبات أن تتبــع مساراً دائريــاً واحد الاتجاه. الزوايا الحــادة في أركان المباني تم بترها بشكل بان كوبي (شطفية) حتى توفر واجهة ثالثة تطل على الكارفور (ملتقــى الطرق). من ناحية أولــى، سهل هذا الحل الحركــة بإزالة نقاط التعارضــ ومن جهة أخــرى وفر فاترينــات مهمة للمتاجــر، والمخازن والمساكن. وعلى ذلك فقــد استعاد المواطنون الفراغ الحضري الذي جمع ما بين الوظيفية والجمالية. لقد ألهمت فكرة هرناند عدة تجارب بما في ذلك دائرة كولومبس في نيويورك. وأيضاً في عام ١٩٠٦، صدم أدولف لووس مجتمع فيننــا التوفيقي بتصميمــه مبنى جولدمان وسالاتشــ، أمام القصر الإمبراطوري وفي ركن مطل على ميشائيلاربلاتز، بواجهة، عاطلة من الزخارف بشكل متقشف وثوري.

إضافياً يسجله ماكلين في تقريره:

'. . . وأكثر سمات الخرطة وضوحاً هي الشوارع القطرية التي يبدو أنها أضيفت بصورة أساسية لأسباب عسكرية. كل تقاطع من هذه الشوارع يتحكم في قطاع معتبر من المدينة. والشوارع القطرية لا شك أنها طريقة اتصال مهمة بين النقاط المختلفة، لكنها عند التقاطعات تنتج قطع أراض غير ملائمة وهي غير مناسبة بعض الشئ داخل الحيِّ التجاري بالمدينة'[38].

وهكذا، فإن مشروع المدينة قد قام على أهداف عسكرية غير معلنة حددت شبكة طرقها بشكل واضح. وهذا يُفسّر



شكل٧ - خريطة الخرطوم، ام درمان والخرطوم الشمالية (Source: WHYTE, 2011)

38 - W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum ..., cit., p. 586.

عدم اكتراث المخطط بالاستفادة التجارية من تقاطعات ثماني شوارع.

لا تتوقف هذه الخريطة أبداً عن إدهاشنا: إن تشعّبات الشوارع تُشعّ للخارج. إلى أين تقود هذه الشوارع؟
من ناحية الجنوب والشرق، تقود هذه الطرق إلى لا مكان. فوراء محيط البلدية لا يوجد ذكر لأي مركز حضري ذي بال في الخرطة (شكل 7)، رغماً عن وجود عدة مستوطنات ريفية متناثرة، الأمر التقليدي في إفريقيا جنوب الصحراء. وهذه، على العموم، ليست بالأهمية التي تبرر العدد المعتبر من الشوارع التي تقود خارج المدينة. و نحو الشمال، فالشوارع مغلقة بالصف المستمر للمباني الحكومية ومساكن الرسميين الإنجليز ذوي الرتب العالية، والتي تصطف حدائقها موازية لشاطئ النيل
الأزرق. حتى هذا اليوم تعطي المدينة ظهرها للنهر. أما من ناحية الغرب فالشوارع تتوقف فجأة عند حافة شريط من الأرض يغمره فيضان النيل الأبيض كل عام، وكانت المياه وهي تنحسر ببطء تجعل من الأرض الطينية التي يصعب تصريفها مستنقعات. كان الاتصال بالمستوطنات المجاورة الكثيفة السكان في ام درمان والخرطوم بحري تؤمّنه المراكب النهرية. الكبري الوحيد الذي تكشف عنه الخريطة هو كبري خط السكة الحديد الذي بني عام 1909 بواسطة شركة كلفلاند للكباري والهندسة في الجزء الشرقي من المدينةَ عبر النيل الأزرق. إن قلة الكباري تبقى حتى اليوم خاصيّة غريبة لمدينة مثل الخرطوم مبنيةٍ عند التقاء نهرين. وللغرابة أيضاً أنه

عندمـــا تقرر توصـــيل المدينة بمعدية المقـــرن، تم ذلك بواسطة خط السكة حديد، الذي اكتمل في 1912، وليس الشـــارع القائم الذي كان يقود لذلـــك الاتجاه[39]. أخيراً، فـــإن الحركة اليومية ذات الاتجاهين، (للموظفين ذاهبين للمعســكرات وللمواطنين ذاهبين للعمـــل في المدينة) لم يكن ليحتاج لهذهِ الشـــبكة المفخمة الباهظة. لم تكن هذه الشوارع مصمّمة للخروج من المدينة.

كتـــب سارســـفيلد-هول، موظف الخدمـــة المدنية الذي أنهى حياته المهنية بالسودان كحاكم لمديرية الخرطوم، في مذكراتـــه، أن مخطط المدينة يتكون من سلســـلة من المستطيلات التي تشكل صورة العلمِ البريطاني (يونيون جاك). عدد من الشـــوارع، متضمنا الشوارع القطرية، يُشـــعّ من النقطة المركزية لكل مســـتطيل، حيث تنصب مدافعُ رشاشـــة[40]. شـــهادة سارســـفيلد-هول وتقرير ماكلين الفني لديهما ســـمة مشـــتركة واحـــدة، وهي أن كلاهمـــا يركـــز، زووم للداخل - كما نقـــول الآن، على أمر مفرد هو الشوارع القطرية، أو مركز كل مستطيل، ويصرف اهتمام القارئ عن المشهد الكامل. وإذا قررنا، بدلاً عن ذلك، أن نرجع خطوة للوراء ونصـــغر المنظر، نستطيع أن نصنع بعض الاكتشافات المثيرة للاهتمام.

أول الإكتشافات هو أن الشوارع القطرية إنما هي محاور

39 - E.G. SARSFIELD-HALL, From Cork to Khartoum. Memoirs of Southern Ireland and the Anglo-Egyptian Sudan. 18861936-, Kendal, 1975, p. 103

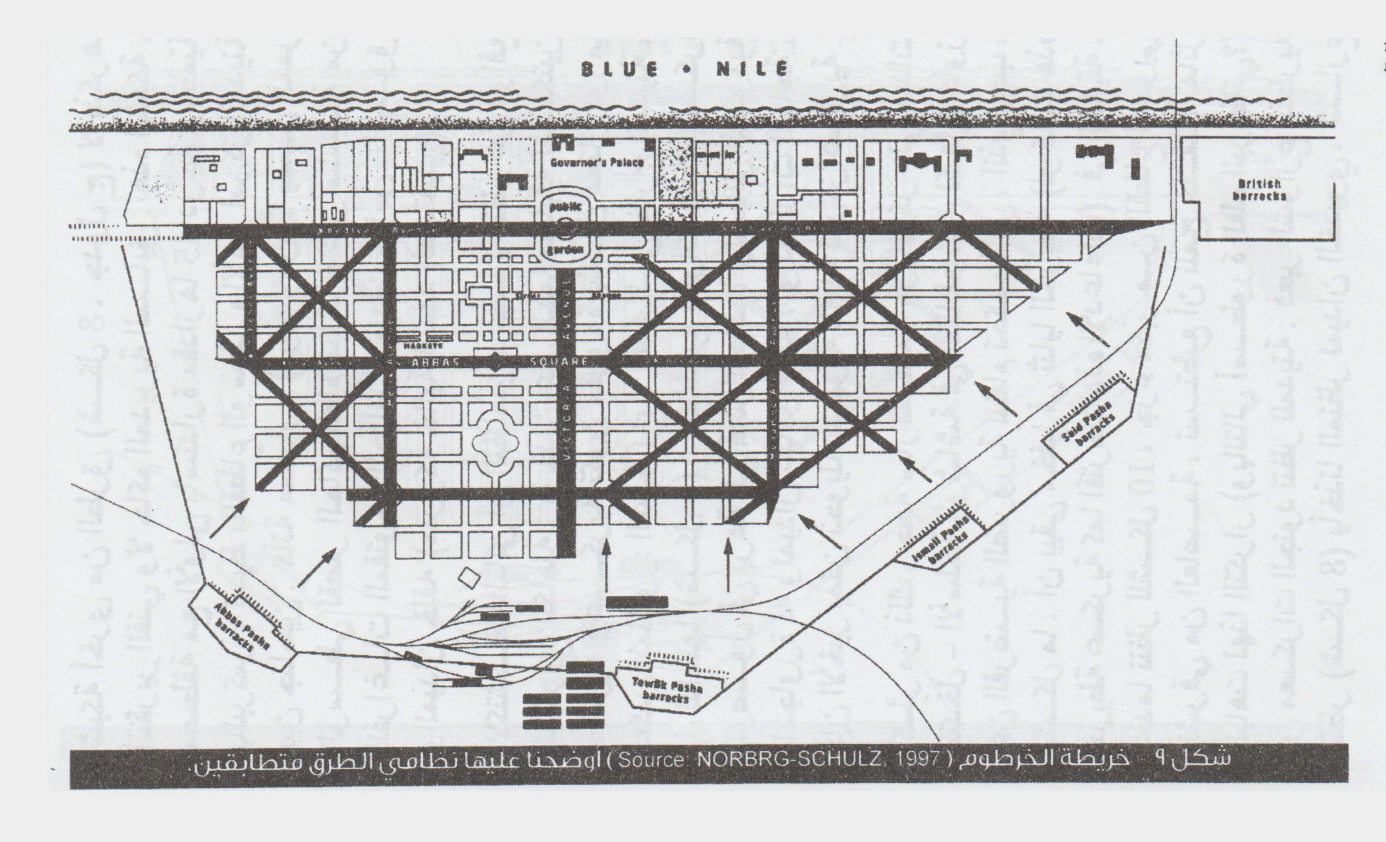
40 - '... إن أكـــثر سماتهـــا أهميّةً هـــي المعابر الواسعة وأيضـــاً الشوارع الجانبية القطرية وهي كلهـــا في مجمعة في مستطيلات قسّمت المدينة لسلسلة من الأعـــلام البريطانيـــة تتكون من عدد مـــن الشوارع المشعّـــة من نقاط مركزية في كل مستطيل بحيث يمكن نصب مدافع رشاشة للتحكم فيها'.
E.G. SARSFIELD-HALL, From Cork, cit., p. 102.

شكل ٨ خريطة الخرطوم حسب نوربرج شولتز (Source: NORBRG-SCHULZ, 1997) أظهرنا عليها نظام الطرق القطرية.

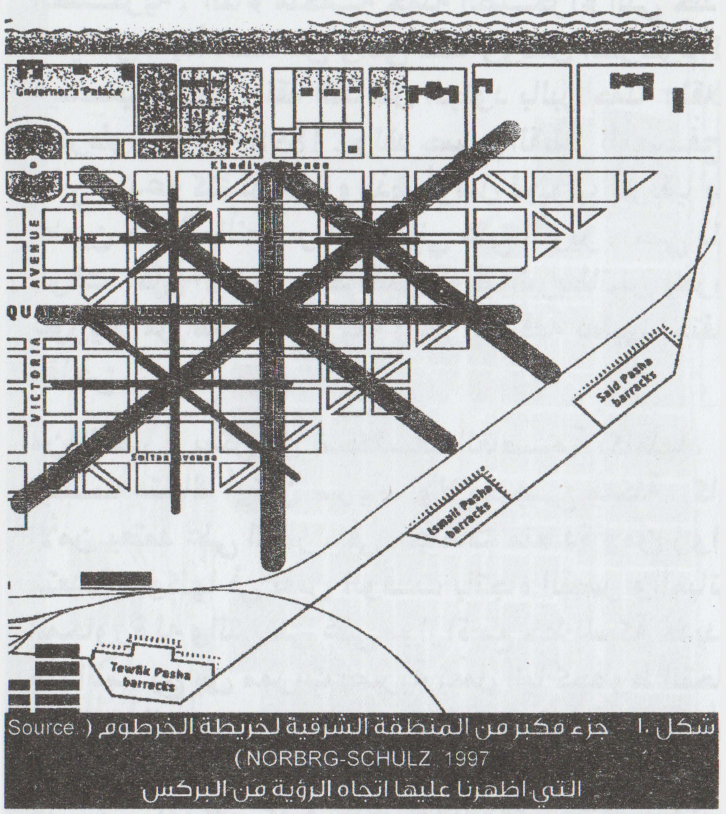
شبكة أخرى من الطرق (شـكل 8، جدول ج) لا يذكرها التقرير الفني ولا حاكم المديرية السـابق. هذه الشبكة، مصطفة مع الأولى باستدارة مقدارها 45 درجة ومحميّة بالبركس، تحيط بالقطاع الوَسَطي والأكبر لمركز المدينة بين جناحين. كأنة مسـار. (دروموس)، يصـل الممر الوسـطي لقصر الحاكم العام مباشرةً عبر سلسـلة من الفراغـات المفتوحة:الحدائق، ميدان عباس، السـوق والميدان خلفه (متروكة خالية للتمدد المستقبلي).

الإكتشـاف الثاني أن النظامين، غضـ النظر عن دوافع المشروع الكامنة، يؤخذان على أنهما مطابقة لشـبكتين حضرية وعسـكرية تكون مقروءة بشـكل ممتاز فورما نعكس المنظور: الشـوارع لا تقود إلـى خارج المدينة، بل لداخلها (شـكل 9). تسـتطيع القوات في المعسـكرا الوصـول في برهة إلى قصر الحاكم، وللمباني الحكومية المجاورة له ولميدان عباس باشا. وإذا طرأت الحاجة، فإن الأخير يمكن تحويله بسهولة لنقطة تمركز عسكرية.

أكـثر من ذلك، حجة سارسـفيلد -هول تركّز على معدات التدخّل - الأسلحة الرشّاشة في التقاطعات - لكنها تتجاوز عن الفرضـية الضرورية لنظام تحكم وقائي، الذي يجب، بشـكل ما، أن يبقى مخفياً في ثنايا الخريطة (لو كانت هذه خريطة عسكرية كما اقترحت هذه الإدعاءات). في الحقيقة، عندما ننظر للشـكل 10، جزء مكبّر مـن القطاع الجنوبي الشرقي من العاصـمة، نسـتطيع أن نلمح خلـف التماثل الباهت لهذا التكرار (وبالتالي أسـطورة العلم البريطاني؟) أن معسكرات الجنود تنظر للمدينة. فعبر الشوارع القطرية تنظر (شـكل 8) يأخذنا المنظر لميدان الخديوي، شـارع



شكل ٩ خريطة الخرطوم (Source: NORBRG-SCHULZ, 1997) أوضحنا عليها نظامي الطرق متطابقين.



شكل ١ - جزء مكبر من المنطقة الشرقية لخريطة الخرطوم (Source .
(NORBRG-SCHULZ. 1997
التي اظهرنا عليها اتجاه الرؤية من البركس

عباس، شارع السلطان وكذلك البنايات الحكومية والمسجد الكبير وميدان عباس. وفي الحقيقة، عند الفحص الدقيق، فإن وظيفة هذه الشوارع القطرية يبدو أنها بالضبط لإتاحة الرؤية من الحاميات، أما لتحركات الجنود، فالشوارع الشمالية الجنوبية من النظام المتعامد كانت ستصبح كافية.

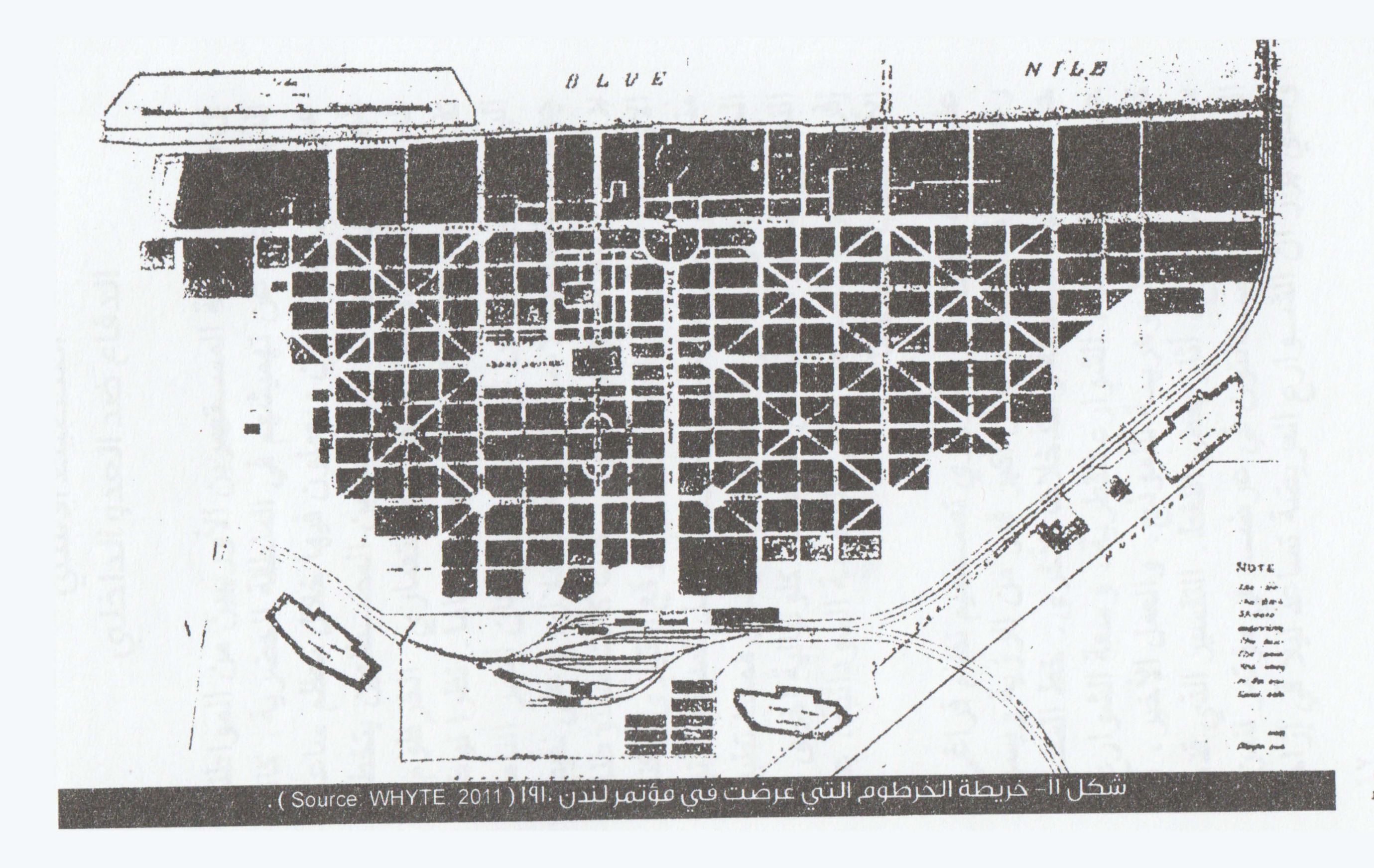
وبالنسبة للمناطق التي لا تمكن رؤيتها من الحاميات، فإنها يمكن رصدها من قطار متحرك. هذا سبب خط القطار الشهير الذي بناه جنود كتشنر لنقل الفرق

العسكرية، أثناء ملحمة حملة الصحراء التي خلّدها ستيفنس. بدأ الخط من وادي حلفا ووصل الخرطوم 31 ديسمبر 1899. لقد أنقذ نقل الجنود بالبر حملة دنقلا–الخرطوم 1896–1898. ولقد حسم القطار المصفّح، الذي ابتدعه كتشنر[41]، والذي أرسل لجنوب إفريقيا بعد عامين لاحقاً، النصر البريطاني على البوير. حتى ذلك الوقت، كان الأخيرون قد أقلقوا مرقد البريطانينن بحرب غوريللا من هجمات سريعة وغير متوقعة يعقبها اختفاء مفاجئ.

من القطار، يمكن أن تستكشف العاصمة بكاملها، إذ ليست هناك أركان سرّية، ولا ملاجئ ممكنة. كان الأمن يعتمد على النظر، في اتجاهات متعددة ومن زوايا متعددة، وكلها في نفس الوقت باتجاه القصر والمباني المجاورة له والتي هي على موازاة مع خط السكة حديد. هذا النسيج من ممرات بصرية تعمل آنياً كخطوط التحام وناقلات للجنود، تفترض خيارات تخطيطية معينة: أنّ نقاط تقاطع النظامين يجب أن تتطابق، حتى لو تم ذلك على حساب الحركة في المدينة؛ المباني ستنتهي بزاويا حادّة رغماً عن عدم عملية وعدم جمالية وعدم ملاءمة هذا الحل تجارياً؛ وأن الزينات والتماثيل والنوافير يجب ألا تحجب الرؤية للميادين (شكل 11).

---

41 - G. ARTHUR, Life of Lord Kitchener, London, 1920, p. 6.
واحدة أخرى من اختراعات كتشنر هي أول معسكر تكثيف في التاريخ، حيث أبقي المجتمع المدني رهينةً (مائة وثمانية عشر ألف أبيض وثلاثة وأربعين ألف أسود في ١٩٠١) خلال الحرب في جنوب إفريقيا والتي أزهق فيها حوالي أربعة الآف إمرأة وأثنين وعشرون ألف طفل.
G. ARTHUR, Life of Lord Kitchener, cit., p. 12.



شكل ١١ - خريطة الخرطوم التي عرضت في مؤتمر لندن ١٩١٠ (Source WHYTE 2011).

التخطيط الأمني
الدفاع ضد العدو الداخلي

إنّ ضمان حماية المستعمرين الأوربيين من المواطنين الذين، رغماً عن تهميشهم في المنطقة الحضرية، كانوا على العموم يعيشون ويعملون فيها خلال معظم ساعات اليوم، كان هاجساً دائماً للفنيين المضطلعين بتخطيط العواصم الجديدة خلال العصر الاستعماري. الخرطوم لم تفلت من هذا الإشتراط. بل بالعكس تماماً. نظراً لوضع البريطانيين الخاص في السودان، كان أمر التأمين جوهرياً بالنسبة لاستراتيجيّة الإحتلال. وعلى نقيض برازافيل، باماكو أو فري تاون، حيث كانت مستوطنات الأوربيين - القيادة والمساكن - في موقع إمتيازي يمكنهم منه التمتع بالهواء الطلق ومنظور أفضل للمدينة، بُنيت الخرطوم على أرض مسطحة. ولم يكن ممكناً تطبيق النموذج الذي تمّ تبنّيه في عواصم كلونيالية أخرى في إفريقيا جنوب الصحراء على العاصمة السودانية، على الأقل بسبب تسطيحها.

على ذلك، كان من الضروري تصميم نظام فراغي، رغماً عن تسطيحه، يوفر أكبر قدر من الرؤية ويسهل حركة الجنود الخاطفة والتدخلات الأخرى. خط السكة حديد، التقاطعات، الشوارع القطرية، وسعة الشوارع، كانت العناصر الجوهرية للنموذج. والعمل الأخير، أي سعة الشوارع، أثار بعض اللغط. التفسير الذي قدمه الماجور إ. أ. ستانتون في عرضه في مؤتمر لندن، والذي برّر أن الشوارع العريضة تساعد ليلاً في إزاحة

الحـــرارة المنبعثة من الحوائط(42)، ربمـــا لا يكون كافياً لكي يمنع التشبيه عقلياً مع الجادّات الباريسية لأوسمان القديـــر. وعلى العموم، فهي تطرح موضـــوع الصـــحّة والنظافة، الذي سنعود إليه بعد قليل.

وبعد تحليلنا هـــذا تبدو خريطة الخرطـــوم كفراغ مفتوح ومغلق معاً، بما يمكّن من التحكّم على كلا المســـتويين، الجماعـــي والفردي - وفي كلمات أخري، عكسٌ لمنظور البـــان أوبتكون (الرؤية الشـــاملة) الـــذي اخترعه بنتام بنتهام في إشـــارة لإدارة دولة شـــفافة، يكون المنظورُ فيها بالداخل والناظرُ حول الإطار الخارجي بكامله.

كانت لدي المعهد الملكي للمهندسين خبرةٌ في موضوعات المراقبة وكانوا مطّلعين على نظرية بنتام للمراقبة. ومنذ 1842 كان الكابتن جوشـــوا جب، المهندس الملكي، قد صـــمم الخريطة الدائرية لسجن بتونفيل في ملبانك (شكل 12) أحدث سجون بريطانيا والتطبيق المحْكَم لأساسيات البان أوبتكون. الخلايا في المحيط لها نوافذ متقابلة من الزجـــاج المعتم، أحدهما ينظر للخـــارج والآخر للداخل. وتســـقط لعبة الضوء والظل صورةَ السجين على الزجاج الداخلـــي، بما يجعلـــه مرئياً تماماً للحارســـ (واحد لكل طابق يكفي) في البرج المركزي. بالضبط كما في المبنى

42 - إن' [...] لقد سمعت أن هنـــاك نقداً بشكل مـــا لعرض الشـــوارع [...] الحـــرارة الشنيعة التي تسقط علـــى الحوائط نهاراً، أحيانـــاً أكثر من ١٥٠ درجة فهرنهايت تحـــت الشمس، [...] تشع الحـــرارة ليلاً لمسافة عشرة أقدام أو حتى أثنتي عشـــر قدماً أحياناً. لذلك فإنه من اللازم جداً أن تكون الشـــوارع بعرضـــ كافٍ لإتاحة مـــرور الهـــواء البارد لمعادلـــة الحرارة المنبعثة'.
E.A.STANTON, Discussion, in W. WHYTE (ed.), The Transactions, cit., p. 600.

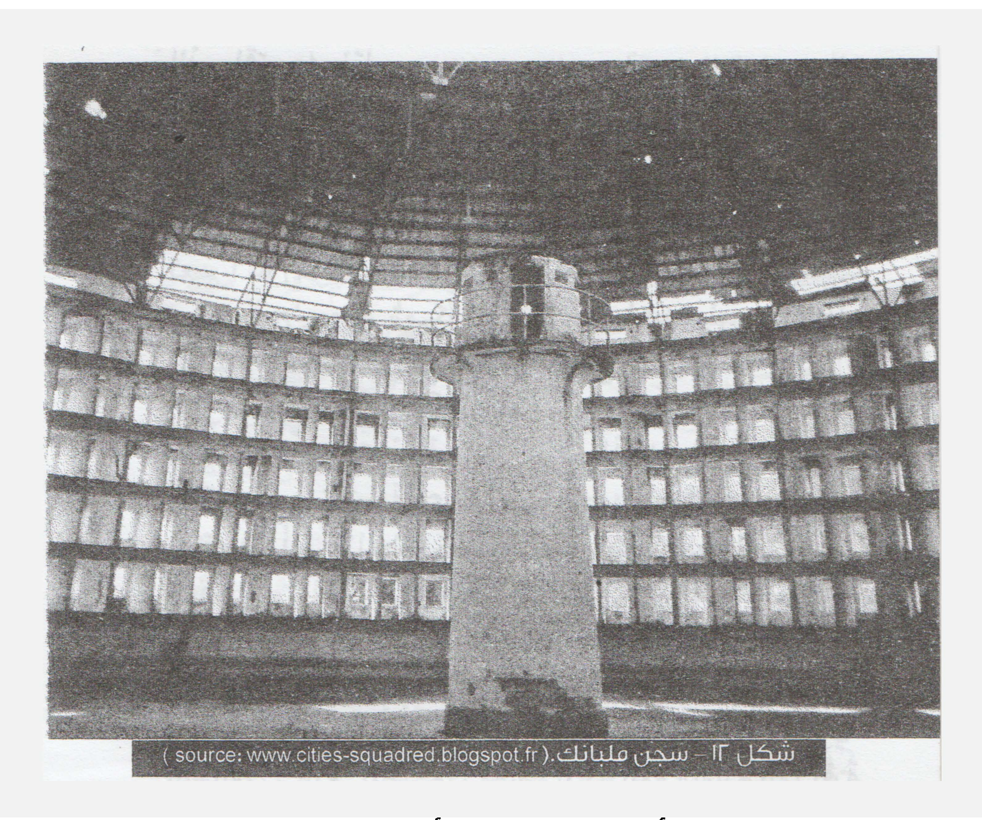
الذي اقترحه بنتام .

كان مبنـــى البان أوبتكون أكثرُ مـــن تطبيق حاذق لتقنية معمارية[43] مكنت من التحكّم الـــرادع في أفراد متعددين بأقل عددٍ من الموظفين والوســائل. أكثر من ذلك، كان تعبيراً عن موقف فلسفيٍ واجتماعي لنظِام متابعة 'يستتيب ويصـــحّح'. وقد شـــكل ذلك أساســاً آيديولوجياً للنظام التعليمي الإصلاحي في القرن التاسع عشر بكامله. الفرد الموضـــوع تحتَ مراقبة دائمة، ســيتعيّن عليه أن يسلك مســلكاً حميداً يتّخذه فيما بعد خصـــلةً له. إن أي شخص يعتقـــد في إمكانيـــة إعادة تعليم وإصــلاح المجرمين إنما يعتقد في أمر يناهض تطبيق العقوبات البدنية للمرضـــى العقليين وبالتالي فهو يعتقد أيضاً في المترادفات مراقبة/ تعليم - مراقبة/إعادة تأهيل، كأنما لو كان يتنبأ بشكل ما بنظرية معامل التشذيب. ذهب كتشنر، من جانبه، خطوة أبعد من ذلك، حينما اعترف بإيمانه بالرسالة الحضارية للبوليس، الذي تتضـــمن مسؤولياتُه المؤسسية المراقبة والكبت. طرح كتشـــنر إدّعاءاته هذه أثناء الحديث الذي قدّمـــه في جامعة كمبردج بحثاً عن تمويلٍ لكلية غردون. كان طلاب كمـــبردج قد رحبوا به منشـــدين: 'لأنه رفيقٌ طيب مـــرح' بينما قذفوا في النهر المتجمد بالبروفســـور الذي تجرأ وأبدى امتعاضاً من مذبحة الدراويش[44].

---

43 - (De l'utilité du Panoptique, by C. LAVAL, Paris, 2002
م. فوكو وأكاديميين آخرين (أنظر المقدمة الرائعة للبان أوبتكون كانـــوا مسؤولين عن إعـــادة إكتشاف بنتـــام، الذي نُصّـــب طويلاً كمنظّر لتصميم السجون.

44 - P. MAGNUS, Kitchener, Portrait of an Imperialist, London, 1958, p. 144.
وعلى رغم أن الأرقام ليست مؤكدة، نتج عن معركة أم درمان ستة عشر



شكل ١٢ – سجن ملبانك. (source: www.cities-squadred.blogspot.fr)

ربما يجدر أن نعيد للذاكرة أنٍ معظم مفتشي الخدمة الوطنية في السودان مستقبلا، كانوا لا يزالون ذلك الوقت طلاباً في أكسفورد.

عبر القرن التاسع عشرتم تطبيق نظام بنتام الخاص

ألف قتيل وسط الدراويش وفقط ثمانية وأربعين من الرتب البريطانية المصرية. خمسة عشر ألف جريح إختفوا دون أثر. الفيلقٍ الأسطوري ٢١ رمّاحين، الذي شارك فيه و. تشيرشل، يبدو متضائلاً عند وضعه تحت التقييم التاريخي: كان الدراويش يحاربون غالباً بأسلحة باردة بينما كان البريطانيون يستخدمون البنادق الرشّاشة والرمنجتون. من النهر كانت البوارج الصغيرة 'زفير' التي بناها كتشنر تطلق النار على المدينة. واحدة من هذه البوارج، يبدو أنها كانت لا تزال تعمل في ثمانينات القرن العشرين، موجودة الآن في حرز نادي الخرطوم للزوارق.

في انجلـترا، الولايـات المتحدة وجهـات أخرى، على إنشاء مؤسسات عقلية، سجون، مستشفيات، مصانع، مدارس داخليـة وأي مبنى جماعي يحتاج سـكانه لأن يروّضـوا على نمط سـلوك مقبـول اجتماعيـاً لم يكن بمقدورهم اكتسـابه بمفردهم، بسـبب حالتهم العقلية أو الاجتماعية[45].

لـو كان هذا هـو المنطق الذي يحكـم مخطَط الخرطوم، إضـافة لإحداث فارق واضح عن خريطة شيكاغو، فهي تفصـح عن مشـكلتين فوراً: كيف يمكن توزيع السكان، وكيف يمكن لتمـدد المدينة، المناط بهـا أن تكون أكبر عاصـمة إفريقية، أن يُصمّم دون أن يُهدم إطارَ سياجها الضخم؟

45- ١٨٢٩ شهـدت افتتاح سجن الولاية الشرقية في بنسلفانيا (حيث قضى آل كابون ضمن آخرين فترة عقوبته). إتّبع المبنى الذي صممه المعماري الإنجيـزي جون هافيلانـد مخططاً دائريـا بسبعة ممرات تشـع من برج مركزي. كل خلية كان لها نافذة سماوية إسمها 'عين الإله'. وكتاب
W.A.F. BROWN, What Asylums Were, Are and Ought to Be
سلـط أنظار الصحافـة في ١٨٣٧ على الأوضاع الشنيعـة التي يُحبس فيها المعوقون عقلياً في انجلترا. بقانـون لوانسي ١٨٤٥، عيّن البرلمان محافظ لوانسي مسؤلاً عن إصدار تقرير سنوي. واحد من أول المؤسسات العقلية مبنيـة على غرار بنتـام كان هو مصـح مقاطعة شارلس فلـور، المؤسس ١٨٤٢، والذي تبعه إنشاء حوالي عشرين مستشفى للأمراض العقلية على نفس النموذج. أنظر:
S. PIDDOCK, A Space of their Own. The Archaeology of the Nineteenth Century Lunatic Asylums in Britain, South Australia and Tasmania, Adelaide, 2007.

توزيع السكان
أعزِل وحاصِر لكي تتحكم أفضل

حتى عام 1910 ، لم يكن تعداد سكان الخرطوم أكثر من خمسة عشرة ألف شخص ، ربعهم فقط من الأوربيين. معظم السكان المدنيين كانوا ينحدرون من الأتراك ، الألبان ، القوقاز ، والأرمن وكانوا يعملون في مكاتب الحكومة ، غالباً كمترجمين. كان المصريون غالباً ما يعملون كمدرسين لكن أيضاً عاملي تلغراف ورؤساء فرق عمل أو موظفين بسيطين. السوريون والأقباط عادة ما عملوا كمحاسبين وصرافين في مكاتب الحكومة. أقلية جاءت من الشرق الأوسط[46]. نال السودانيون أدنى الوظائف غير الماهرة: خدم ، غلمان اسطبلات وعمال يدويين ، وكان معظم هؤلاء يسكن في ام درمان في حقيقة الأمر ، لقد التحمت ام درمان الآن بالمجتمع الحضري ، وقد كان تعدادها ستين ألفاً آنذاك. في الخرطوم الشمالية ، على الشاطئ المقابل من النيل الأزرق تكونت مؤخراً مستوطنة تلقائية من حوال ثلاثة وعشرين ألفاً من السكان الأصليين[47] ، إضافة للحامية المصرية ، على حسب ماكلين[48].

في ذلك الوقت ، كما هو قائم الآن ، تضمنت الخطة التعميرية تقسيم المنطقة لثلاث درجات منفصلة ، موزعة عبر المحور الشمالي-الجنوبي من النظام المتعامد. عكس هذا التقسيم التكوين الاجتماعي الاقتصادي للسكان

46 - H.C. JACKSON, Sudan Days and Ways, London, 1954, p. 26.
47 - W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 577.
48 - Ibid, p. 585.

بالتوافـق مع النموذج البريطاني[49]، لكن أيضـاً هرميّة الوظائف والمهام الإداريـة: البريطانيون الذين يحتلّون أعلى الرتـب العسكرية والإدارية تمتعوا بالسكن في الدرجة الأولى. المصريـون الذين مُنحوا درجات أقل، سكنوا في مناطق الدرجات الثانية والثالثة.

الأراضي الشمالية التابعة للمديرية، الواقعةعلى الضفة الجنوبية للنيل الأزرق، كانت محمية برصيف، ومحاطة بالحدائق وقد أسبغت عليها كل وسائل الراحة على طريقة الحياة الإنجليزية. أوت هذه المنطقة قصر الحاكم، الفندق الكبـير، كلية غردون، مستشـفى الخرطـوم المدني، 'الدائـرة البحريـة'، الأجزخانـة الإنجليزيـة (أفتُتحت 1906)، الكنائس القبطية والأنجليكية، مسـاكن وحدائق أرفع رُتـب الموظفين البريطانيين، النـادي المصري، منزل السوداني سيدي على الميرغني،[50] وعلى الطرف الشرقي البركس البريطاني.

توسـطت المنطقـة الأولـى بـين شـارعي الخديـوي والسردار، إلى الجنوب مباشرة من ممتلكات المحافظة. احتلت المنطقة الثانية من شـارع السردار حتى شـارع عبّاس (المحور المركزي للمدينة). كان المسـجد الكبير في ميدان عباس.

شـكّلت المنطقة الثالثة كل القطاع الواقع جنوب شـارع عباس. أخيراً، وإلى الجنوب أكثر، خلف التحصـينات القديمة، كانت هناك قرى الوطنيين.

49 - حول 'الجغرافيا الإجتماعية' للندن، الأصول والتطوّرات، أنظر:
D.J. OLSEN, The City as a work of Art, London, Paris, Vienna, New Haven, 1986.

50 - H.C. JACKSON, Sudan Days, cit., p. 21

كلمـــا بعُد الشـــخص جنوباً من قصر الحاكـــم، قل تواجد الحدائق، وأصـــبحت الفسحات أصـــغر واختفت وسائل الراحة حتى الشريط في أقصى الجنوب من صف المنازل الكئيبة المبنية على أرض الصحراء.

تقســـيم الســـكان، بالاعتماد على الدخل، لم يكن مرتبطاً بسعر الأرض - فالحكومة قد باعت مساحات منها بأسعار مناســـبة- إنما بقانون أراضي المدينة 1899 والتشريع اللاحق عن أدنى أســـعار المباني، والمواد التي تستخدم وبعض قواعد الإنشـــاء الخاصـــة التي يجب الإلتزام بها خشية النزع[51].

في الدرجتـــين الأولتين، كمثال، كان علـــى المنازل أن تحاط بأســـوار، يحدد القانون تكلفتهـــا الدنيا، إلا إذا لم تكن مرئية من الشارع. وكذلك يُفرض سعر أدني لإنشاء المبنى، كما يحدد القانون أي المواد تستخدم، بما يشمل الحجر، الخرســـانة، الطوب المحروق، أغلى كثيراً من الطـــوب غير المحروق. النصّ على الحد الأدنى للســـعر كان من ناحية رسمية يُعتبر منحىً ضد المضاربة.

في سياق الاقتصاد الكلونيالي، على العموم، كان فرض مـــواد بناء غـــير تقليدية علـــى العمارة الحضريـــة أمراً عادياً، وكان موجّهاً أحياناً لدعم صناعات الدولة 'الأم'. 'أريد سلالم من الرخام، أبواب، شبابيك'، كتب كتشنر

---

51 - حـــول القانـــون العـــام عن تسجيـــل الملكيـــات وبيع الأراضـــي التابعة للحكومة الاستعمارية أنظر:
G. WARBURG, The Sudan under Wingate. Administration in the Anglo-Egyptian Sudan 18991916-, London, 1971, pp. 155167-, and S.M.A. El-MAHDI, Introduction to the Land Law of the Sudan, Khartoum 1979, pp. 17-.

لوينجيت[52]. فقط على أعتاب الحرب العالمية الثانية وضحت عدم صلاحية المواد المستوردة من أوروبا للمناخ الاستوائي مما دفع بتطوير العمارة الاستوائية. وعلى كل حال، لم تذهب الخرطوم بعيداً مثل فري تاون حيث استوردت السلطاتُ الاستعمارية مساكنَ خشبية سابقة الصنع، كاملة بما في ذلك المدفأة[53].

لا شيء من هذه الإلتزامات المكلفة قد تم تطبيقه على المنشآت من الطوب غير المحروق، الذي مثل معظم منطقة الدرجة الثالثة. هنا يقطن أولئك الذين ليس بوسعهم تلبية احتياجات الدرجات الأولى والثانية. ولمعظم السودانيين، على أية حال، فقد كان الحصول على مسكن في الخرطوم أمراً مكلفاً جداً و بالتالي كان السكن في أمدرمان أقلَ كلفةٍ[54].

كان فصل السكان المحليين جنوب حدود المدينة أكثر من أن يكون مجرد حق للاستعمار البريطاني. ففي الخرطوم لم يكن هذا الأمرجديداً في الواقع، إذ أن النظام 'التركو-مصري' كان قد طبّق ذلك قبل ثمانين سنة، حسب تقييم بابكر.

ما كان جديداً هو شروط السلامة والصحة التي قُدّمت في نهايات القرن التاسع عشر، خاصة في المستعمرات البريطانية، لتبرير العزل السكني، ونسخته الأكثر جذرية التمييز العنصري. كانت الأوبئة التي اجتاحت

52 - مقتبس من
G. WARBURG, The Sudan under Wingate, cit., p. 3.
53 - A.J. NJOH, Planning Power. Town Planning and social control in colonial Africa, London, 2007, p. 70.
54 - H.C. JACKSON, Sudan Days ..., cit., p. 24.

مدن أوروبا الصناعية المكتظّة ومواجهة أمراض جديدة مفزعة قادمة من المستعمرات قادت للترويج لنظريات صحية، لميلاد طب المناطق الحارّة ولنشوء التعاون بين المخططين الحضريين والعاملين في مجال الصحة على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين، معاً في أوروبا وفي الأراضي الواقعة في ما وراء البحار[55].

في المستعمرات الفرنسية، كان يتم تبرير العزل السكاني بأسباب ثقافية. ففي برازافيل، كمثال، كان هناك قرار من 1904 يمنع السكان الأفارقة من ضرب الطبول والرقص خلال ساعات معينة من اليوم، رغماً عن أن هذه الأنشطة كانت عناصر مهمة في الإحتفالات، الولائم، والجنائز بالنسبة للثقافة التقليدية المحلية. التام تام ورقصات أخرى عالية الضجيج كانت ممنوعة في محيط برازافيل الداخلي، أيضاً بسبب القرار، وكان يسمح بها في حالات استثنائية، بعد طلب مسبّق وبعد دفع ضريبة مقدارها خمسة فرنكات، وفي كل الأحوال ليس أكثر من مرة في الأسبوع، يوم السبت من 6 مساءً حتى صباح الأحد[56].

في المستعمرات الأوروبية، على كل، لعب الطب دوراً بدائياً في ظاهره، يمكن مقارنته فقط بالخواص السحرية التي أسبغت على اللمسة الملكية في تاريخ المسيحية الغربية. كثيرون لم يجرأوا على التشكك في التدابير الوقائية التي اتخذتها السلطات الصحية ضد الوبائيات

55 - فيما يختص بالوضع الإيطالي، أنظر:
G. ZUCCONI, La città contesa. Dagli ingegneri sanitary agli urbanisti (18851942-), Milan, 1988.

56 - A.J. NJOH, Planning Power ..., cit., p. 115.

التـــي اجتاحت الســكان المحليين، أكثر من أي شـــخص آخر. الفصـــل الســـكاني العرقي كان هو الخيار الوحيد الذي يمكن تنفيذه. وفي المســتعمرات الإستيطانية، فقد تحـــوّل الأمر لتفرقة عنصرية[57]، كما في حالة نيروبي، التي قدّم فيها استفحال وباء الطاعون 'البوبوني' فرصة لعزل الســكّان المحليين في المستوطنات الريفية، خارج مركز المدينة. لم يشـــعر معظم الســـكان، على العموم، بالأمان في المستوطنات الحضرية، لان هذه كانت غالباً نتاجاً مستورداً من استعمار إفريقيا جنوب الصحراء.

كان النقاش حول المسائل الصحية، بما يشمل المصطلحات الطبية نفسها، يُغلّف العمليات غير المرغوب فيها بالسّكر ويخفـــي الأهداف، التي لولا ذلك، ستصـــبح غير مقبولة لقطاعات المواطنين الأكثر حساســـية، هناك في بلادهم،

---

57 - ميّـــز 'نيـــوه' بين نوعين مـــن المستعمرات في جنوب وشـــرق إفريقيا: 'مستعمـــرات الإستيطـــان ومستعمـــرات الإحتـــلال'. في الأولى: جنوب إفريقيا، زامبيـــا، ناميبيا، استوطن المستعمرون بصفة دائمة، بدون خطة في العودة لأوطانهم. فإشتروا أملاكاً وحرثوا الأرض وشرّعوا القوانين. ولقد بذلوا جهدهم دائماً لاقتلاع وإزاحة واستغلال و/أو تهميش المواطنين المحليـــين بوسائل مؤسسية أو غيرها. اعتبر القانـــون أن المواطنين ينتمون للمناطـــق الريفية. ولقد سُمح لهم بالذهاب للمدينة، أحياناً بتصريح، للعمل في وظائف غالبـــاً ثانوية، التي يعودون بعدها لقراهم أو لمعسكراتهم. هذه السياسات لم تكن بريطانية فقط طوال الوقت، ففي ليوبولدفيل، على سبيل المثال، كان على المحليين التراجع لمعسكراتهم في الفجر، تحت التبرير بأن الناموس يكون نشطاً أثناء الليل.

في 'مستعمرات الإحتلال'، كان السكّان الأوربيون أقليّة وعادة يتكونون من الرسميين العسكـــر والموظفين، ملّاك المزارع، ورجال أعمال يكون همهـــم الوحيد هـــو استغلال وتصديـــر الخامات مـــن المستعمَـــرات للدول المستعمـــرة. في هذه الحالـــة، الفرز السكنـــي العنصري كان كافيـــاً لإبقاء السكانَ المحليين تحت السيطرة. أنظر:

J. NJOH, Planning Power, cit., pp. 146186-.

والتي تعبّر عن رأيها عبر الصحف وممثلي المعارضة في البرلمان.

في الكاميرون، في دوالا، شرّد الألمان حوالي عشرين ألفاً من المواطنين. وفي مُمبسّا اقترح موظف بريطاني تفريغ سبعة وعشرين ألفاً من السكان في جزيرة ممبسا لتوفير مكان لمائة وثمانية وأربعين أوروبيّاً فقط[58]. ولم تكن إزاحة السكان خالية من الألم طوال الوقت، فقد قاومها المحليّون وكان ثمن العمليات باهظاً. رغماً عن ذلك، كانت هذه هي توجيهات وزارات الاستعمار للقوى الأوروبية المختلفة. وكان للأخيرة رغبة في إسكان الأوربيين في مناطق صحية على الأقل، وبالتالي تبرهن على أن اهتمامها الرئيسي هو حماية صحة المستعمرين بينما تكون قد وضعتهم في أماكن استراتيجية من ناحية عسكرية.

آمبّي ج. نيوه[59] يقدّم لنا تحليلاً مفصّلاً لبرنامج مكافحة الملاريا الذي طُبّق في المستعمرات الإفريقية. بناء على الفرضية الجزافية بأن حاملي العدوى هم الأطفال السود مابين صفر إلى خمس سنوات من العمر، وأن ناموسة الأنوفليس، محمولة بالهواء، قد تغطّي مسافة أكثر من كيلومترين، هكذا أصبحت التفرقة العنصرية صحيحة سياسياً وحُددت مسافة الأمان بين مناطق المحليين والأوروبيين بناءً على معايير طبية وعلمية.

تم وضع 'المشروع العملي لإنشاء الخرطوم' بناء على خطوط صحية، كما قال كتشنر في خطابه الافتتاحي

58 - Ibid, pp. 215216-.
59 - Ibid, p. 208.

قبل مناقشـــة مخطط الخرطوم في مؤتمر لندن[60]. وفي الخرطــوم، كان د. أندرو بلفور قد نفّذ مشروعاً مماثلا لمكافحة الملاريا وكان عزل السكان قد عُرض باعتباره إجراءات صحية[61]، راعى بشدة مسافات السلامة، لكن مع متغيرٍ إضـــافي يمكن تفســيره فقط بمعايير عسكرية لوجستيةً. كانت هناك مستوطنتان تلقائيتان، واحدة في الخرطوم شمال، حيث توجد بعض الحاميات المصرية، الأخرى إلى الجنوب تحت خط التحصينات القديمة. ولأجل امتصاصٍ نمو السكان المحليين، فضّل ماكلين أن يُنشئ قطباً ثالثاً على الشرق، في محلية بُرّي حيث توجد حاميات البريطانيين، بدلاً عن تطوير المســتوطنتين القائمتين، الأمــر الذي كان سيصــبح أقل تكلفة وأكــثر عملية، بما أنهمــا احتويا على البنيات الأساســية المطلوبة. نتيجة لتوزيعهم على الثلاث مســتوطنات، بقي المحليون على مبعدة، ليس فقط من الحامياتِ المصرية، بل أيضــاً من بعضهم البعض، لكنهم جميعاً كانوا ضمن منطقة سيطرة البركس.

60 - H.H. KITCHENER, Discussion ..., cit., p. 596

61 - 'بُنيت القــرى السودانية جنوب وخارج التحصينــات القديمة لتأوي السكان المحليـين . . . وبهذه الطريقة فقـد جرت محاولة لعـزل السكان 'المحليين' كأمر مرغوب جداً، بصفة خاصة من النواحي الصحية W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 585.

كانـت الخرطوم عـام 1910 لا تزال بأبعادَ متواضـعة. والأرض المحصورة ضمن حدود المديرية، كما تأسس لذلك بقرار من الحاكم عام 1901، تمددت حوالي الميلين بطول شـاطئ النيـل الأزرق وفي العرض لمسـافة ميلٍ وربع، بما ضـاعف من مسطح المدينة القديمة، حسابياً أكثر منه بصورة طبيعية، كما هو موضحٌ في الخريطة.

تنبأت الخريطة بمنطقتين للتمـدد: إلى الغرب تجاه النيل الأبيض، وجنوباً تجاه الصـحراء. والمنطقة الغربية، كما ذكر سابقاً، كانت تُغمر بانتظام بالنيل الأبيض وتظل غير مطروقة لعدة شـهور كل عام. وللدهشة، لا تشير الخريطة لأي منشآت حمايةً من أرصفة أو نظام تصريف الأمر الذي يضـمن اسـتغلال الأرض للأغراض السكنية المستقبلية، هذا بينما كان الجسر على النيل الأزرق أمام قصر الحاكم قد تم بناؤه للتو تقريباً.

معظم منطقـة التمدد الجنوبية، تجاه الصـحراء، كانت مشغولة بالتحصينات وشـبكة خطوط السكة الحديد مما جعلها تبدو كمنطقة عسكرية أكثر منها مستوطنة سكنية.

تبعـت أراضـي المنطقتين للحكومـة، بالتحديد من أجل التحكم في أي امتدادات مسـتقبلية[62]. تسـجيل الملكيات

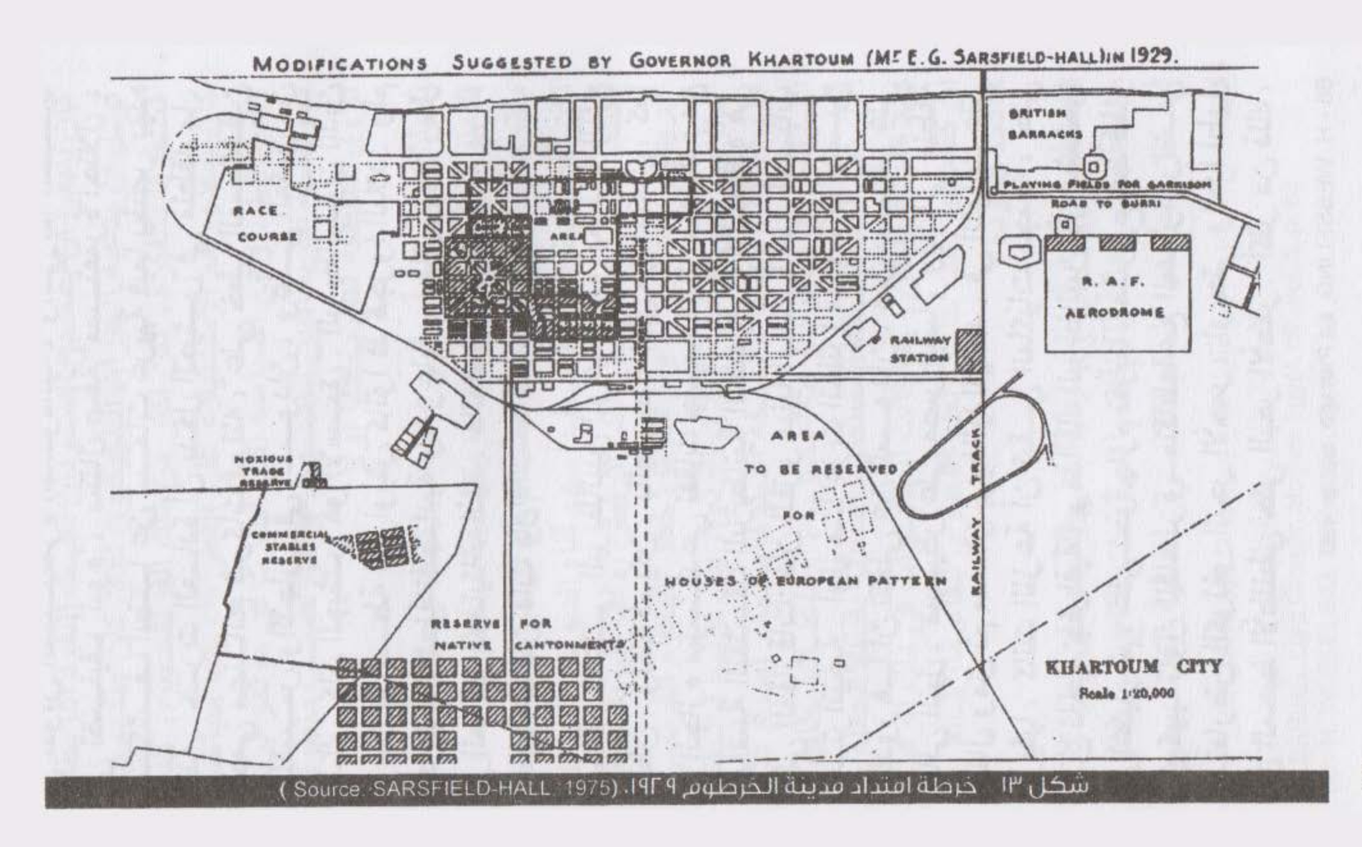
62- '... كل الأراضـي التي تقع غـرب المدينة مباشرة بين النهرين هي أرضـ حكومية. كل الأراضي التي تمتد بعيـداً في الصحراء إلى الجنوب مـن المدينة الحالية هي أرض حكومية أيضـاً، بحيث أن التمدد المستقبلي قد تم ضمانه على خطوط سليمة'
W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 585.

وبيع الأراضي كان يستدعي إجراءات طويلة ومعقدة[63]. الهرميـة العسـكرية على رأس الدولة كانت تفضّـل أن تحوّل الملكيـة للحكومة مباشرة بشرعية الاحتلال، لكن نصيحة فون سلاتين سـادت في النهاية: خلق طبقة من ملاك الأراضـي السودانيين الصـغار سيساعد الموقف البريطاني[64].

وفي خلال العشرين سنة الأولى بعد إعادة الغزو، امتدت الخرطوم فقط نحـو الجنوب. وأنتج سارسـفيلد-هول خرطة ثانية (شـكل 13) مؤرّخة 1929[65]، لا تشير لأي امتداد عدا تجاه الجنوب، نحو مستوطنة السكان المحليين (ولاجئي اليوم) على الخطوط التي تشكّل صورة العاصمة الحالية.

هذه المحاولة الفاشلة للامتداد نتجت عن كثرة المفارقات

63 - كان هـذا بالتأكيـد هو القطاع الإداري الـذي استثمرت فيه السلطات البريطانية معظم طاقتهـا. وفي مزيج من القرارت عديمة الكفاءة والمعقدة على أكثر ما يكون، حاولوا تأسيس معايير موضوعية للاعتراف بالملكيات السابقة. وبالتطابـق مع سياسة 'التحكم غير المباشـر' تعيّنت لجان متعددة (كان الرسميـون البريطانيـون يمثلون غالبية الأعضـاء) لفحص طوفان الاسترحامات (حوالي ١٣٢٣ في العام ١٩٠٦ فقط:
G. WARBURG, The Sudan under Wingate, cit., p. 158.)
مفهوم الفراغ في إفريقيا جنوب الصحراء لم تلتقطه العقلية الغربية بسرعة. كانـت الأرض تملك تقليديـاً بصيغة جماعية (القريـة أو القبيلة)، ولم تكن الحـدود ذات معـالم دقيقـة كما كانت تتغـير بسبب الترحـال، والزراعة المتنقلـة، والصراعـات القبليـة، وفيضان النيـل الذي يجعـل من بعض الأراضي غير قابلة للاستغلال لعدة شهور في السنة. أنظر المقالة الجميلة
A. PASE, Linee sulle terra, Rome, 2011.
64 - بحسـب سلاطين، فإن المالـك السوداني الصغير 'هو أفضل وأرخص عميل سرّي للحكومة' أنظر:
G. WARBURG, The Sudan under Wingate, cit., p. 164.
65 - E.G. SARSFIELD-HALL, From Cork, cit., p. 29.



شكل ١٣ خرطة امتداد مدينة الخرطوم ١٩٢٩. (Source: SARSFIELD-HALL, 1975)

في تكوين المستعمرة السودانية، والتي إذا استندنا إلى تصنيف 'نيوه'، ستنال صفة 'مستعمرة احتلال'، وستكشف أيضاً عن سمات غريبة فيما يختص بهذه الفئة. جرت العادة أن يدخل الجيش في منطقة ما، ليحمي مصالح شركات دولته، على خطى المستكشفين والقسس والتجار. في السودان، وعلى العكس من ذلك، كان الجيش هو الأسبق. البريطانيون الذين هُزموا بواسطة الدراويش كانوا قد هجروا البلاد. ولم تعد هناك أنشطة اقتصادية ولا رعايا بريطانيين ولا 'رَجل في الموقع' لحمايته. لذلك، فالمصالح الاقتصادية وراء العملية لم تكن ذات بال[66].

ولم يفت على البريطانيين الوعد الذي يحمله إنتاج القطن، ولكنه لم يكن، بالضبط، أكثر من احتمال، كما أن إنجازه سيستدعي نفقات جسيمة كانت ستصطدم مع سياسية التقشف البريطانية التقليدية. وكانت هذه هي أولى المفارقات: كان الغزو مبنياً أساساً على أسباب استراتيجية. أول ما غزت انجلترا مصر، لم يصبح بمقدورها أن تتخلى عن السودان، فمن يسيطر على أعالي النيل، سيسيطر على مصر أيضاً، وبالتالي منطقة القنال ومن ثمّ مسار بريطانيا للهند. في التهافت على إفريقيا، كانت النزعة أن تبقي الملكيّات مجمّعة، حتى من ناحية جغرافية، وهذا قاد البريطانيين لأن يضعوا في اعتبارهم، على نحو جازم تقريباً، مشروع خط قطار من كيب تاون للقاهرة، متقاطعاً مع المسارالفرنسي المتعارض الكونغو-البحر الأحمر، أو حتى واحداً أطول من المحيط الأطلنطي حتى البحر الأحمر. أكثر من ذلك،

66 - H. WESSELING, Le Partage, cit., p. 490.

كان ينبغي أن يصبح السودان تحت النفوذ البريطاني قبل أن يدّعيه الجيران البلجيكيون الذي كان مَلِكهم يبدو شغوفاً بالفكرة، لكن أكثر من ذلك الفرنسيين، الذين كان بمقدورهم الإستيلاء على القطر بموجب سياسة وضع اليد، وهي السياسة التي أجيزت في مؤتمر برلين بموافقة البريطانيين أنفسهم، والتي حسب منطوقها تؤول المنطقة لمن يحتلها أولاً.

ثانياً، هذه العملية، التي صَعدت جزئياً على موجة نهوض الإمبريالية البريطانية[67]، لم يكن ممكناً القيام بها بصورة مفتوحة، خشية حدوث صدام مع فرنسا. فالأخيرة لم تكن فقط تقبض على نصف أسهم قناة السويس، بل إنها ظلت، ولمدة أكثر من عقد، ترفض الاعتراف بالاحتلال البريطاني لمصر[68]. ولم يتلاش خطر الهجوم الفرنسي-الروسي حتى توقيع 'الإتفاق الودّي' بين فرنسا وانجلترا عام 1904. وطبقا للنسخة الدبلوماسية، أصبح غزو السودان هو مبادرة تركية-مصرية، يُساعد البريطانيون الان على استعادة تلك المستعمرة السابقة بقيادة الحملة، . وللأهمية بمكان، كما قالت المذكّرات في ذلك الوقت، أن كتشنر ذهب حاملاً العلم المصري للقاء مارشاند بعد حادث فشودة.

وبما أن الرغبة في السيطرة على السودان فعلياً كانت مهددة باستحالة إلحاقه مباشرة تحت التاج البريطاني، فقد كان الحل هو 'الحكم الثنائي': إتفاقية الكوندومنيوم

67 - 'التغيير في السياسة البريطانية كان بدرجة ما نتيجة لنمو الحس الامبريالي الذي ساد انجلترا في حوالي هذه الأثناء'
E. BARING, Lord Cromer, Modern Egypt, cit., vol. II, p. 83
68 - H. WESSELING, Le Partage, cit., p. 135.

بين بريطانيا ومصر. كان هذا الهجين، تبعاً لتعريف مصممه نفسه، لورد لكرومر، هو المسؤل عن وضع السودان شديد الغرابة. يكفي أن نذكر أن الحاكم العام للسودان، تبعاً لاتفاقية الكوندومينيوم، كان يتعيّن تنصيبُه بواسطة الخديوي بناء على توصية من لندن. ولم تجد لندن أفضل من أن 'ترشّح' سردارات الجيش المصري، الذين كانوا، في الأساس جميعُهم ضباطاً بريطانيين: أولهم كتشنر وبعده وينجت. كانت هذه هي القاعدة حتى 1925، وفي كل الأحوال كان جميع الحكّام بريطانيين حتى 1955، بينما الاتفاقية لم تذكر جنسيتهم.

تم تجييش المستعمرة الجديدة بالكامل: أصبح القطر تحت حكم الطوارئ وحتى الإدارة المدنية كانت في يد العسكريين، والتي بالتدريج أصبحت تستبدل بالخدمة المدنية السودانية لكن من عام 1907 فقط [69].

اعتمدت التنمية الاقتصادية كليةً على مبادرات الدولة[70]، وكانت موجّهة بسياسة التقشّف المفروضة من لندن. فتح الباب للمهاجرين الأوروبيين كان يشكّل مخاطرة. الاستثناءات القانونية الممنوحة للأوروبيين

69- كانت الخدمة المدنية السودانية جسما نخبوياً من الشباب، الذين اختيروا بعناية فائقة بناء على تدريبهم الأكاديمي (معظمهم كانوا خريجي جامعات أوكسفورد وكمبردج) وأدائهم الرياضي. ضم هذا الجسم كثيراً من أبطال الكروكيه، كرة القدم والتجديف. ولقد وُصف السودانيون بأنهم 'سود وبنيّون يحكمهم الزرق'. أنظر:
E.G. SARSFIELD-HALL, From Cork, cit., p. IV.

70- زراعة الأراضي غير المستغلة، كمثال، كان من الصلاحيات المحتكرة بالدولة. الاستثناء الوحيد مثلته هيئة التجارب الزراعية في السودان لصاحبها الأمريكي 'لاي هنت'، الذي وصل البلاد فقط في ١٩٠٤ بعد أن حازت هيئته على امتياز أراضي عند ملتقى نهر عطبرة بالنيل. أصبحت شركته مسؤلة عن تنمية مشروع الجزيرة فيما بعد الحرب العالمية الأولى.

في مصر، شكراً لاستسلام الدولة العثمانية سابقاً[71]، كان من الممكن تكراره في السودان أيضاً. كانت ميزانية السودان على الخط الأحمر ولم يكن البرلمان البريطاني مستعداً لأن يصرف قرشاً واحداً. وتأخر بذلك الانطلاق الإقتصادي للقطر. وأصبح على خطة إنتاج القطن أن تنتظر حتى عشية الحرب العالمية الأولي، بمجرد ما إن استقرت الميزانية السودانية، ثم تم تعليقها فوراً بسبب الحرب.

تم اختيار التواجد الأوروبي بدقة وتم تخفيفه مع الزمن. الشركات الخاصة الأولي التي قدمت، وصلت متأخرة نوعاً ما، كما ظلت البعثة الكاثوليكية موقوفة زمناً قبل السماح لها بالعودة للخرطوم[72]. خشيت السلطات الكلونيالية أن النشاط التبشيري سيؤثر على الموازنة مع الإسلام الحنيف 'الأورثودكسي'.

قياساً بالمدينة العربية التي كانت تحت الحكم التركي-المصري -متاهة تعج بالحياة مسوّرة بالحوائط لكنها بالفعل مفتوحة للتجارة والتبادل، والتي وصل عدد

71 - P. M. HOLT, A Modern History of the Sudan, From the Funj Sultanate to the Present Day, 2nd. Edn., London 1963, p. 112.

72 - N. GRANDIN, Le Soudan Nilotique et l'Administration Britannique (18981956-), Leiden 1982, p. 93.

فور استقرار البعثات في الخرطوم، تم تحذيرها من مباشرة المهام التبشيرية وسط المسلمين. في السنوات الأولي بعد الغزو لو قبض على سوداني يتحدث مع مبشر سيكون كلاهما مهددين بالاعتقال. أنظر:

W. FROST, Memories of the Sudan Civil Service, in R. COLLINS, F.M. DENG, (eds), The British in the Sudan, cit., p. 69.

عن وصول البعثات التبشيرية المسيحية في السودان، أنظر:

H.M. MOHAMED AHMED, Sudan, The Christian Design, A Study of the Missionary Factor in Sudan's Cultural and Political Integration: 18431986-, Leicester, 1986.

سكانها في عام 1882 سبعين ألفاً[73]، تبدو الخرطوم البريطانية حقيقة كمدينة مغلقة فاقدة للحياة. جميلة، نعم، لكن ليس بها حركة، كما علّق سائح فرنسي، حسب قول إ. أ. ستانتون في مداخلته بمؤتمر لندن[74]. لم تكن هناك محفّزات حقيقية ولا رؤية دقيقة، على الأقل للمدى القريب، لتشجيع امتداد المدينة ، عدا النمو المتواصل للسكان المحليين، الذين سكنوا في الجنوب تجاه الصحراء.

---

73 - N.B. SHUQAYR, Géographie du Soudan, French transl. by V. A. YAGI, Paris, 2012, p. 115.

74 - E.A. STANTON, Discussion, cit., p. 600.

المعمار:
المفاجأة والإعجاب

لماذا يبذّر كتشنر، الذي يضع حساباً لكل قرش، بهذه الصورة على الخرطوم، يشيّد مبانٍ ضخمة وقصوراً ومساكن عالية النوعية للموظفين؟ هذا هو السؤال الذي سأله المفتش الشاب جاكسون لنفسه عندما نزل من القطار في عام 1907[75]. فلنسأل أنفسنا نفس السؤال، بينما نضع في اعتبارنا ملاحظاتنا السابقة. كان المفترض أن تعلن المدينة عن حكومة جديدة تعتلي سدّة الحكم وأنها هنا لتبقى. كان الناس بحاجة لأن يُثار إعجابُهم. كان هذا بالتقريب جواب جاكسون الذي الذي لخص ببلاغة الأسلوب المعماري لإنشاء عاصمة. استأجر كتشنر خمسة الآف رجل، معظمهم عسكريون، لإعادة بناء الخرطوم. استجلب سبعة الآف غرسة من الهند لتزرع بطول الشوارع العريضة[76]. وفي أثناءِ مجاعة 1899، استخدم القطار لجلب مواد البناء بدلاً عن الحبوب للسكان المتضوّرين[77]، بما يؤكد مرة أخرى الأهمية النسبية للصحة وحياة السكان المحليين.

بعد زيارة أولى لموقع التشييد، أدرك اللورد كرومر قنصل بريطانيا بالقاهرة أن شكل المدينة يختلف عن التصميم الرسمي وأنه ليست هناك رسومات للتفاصيل، لا توجد تقديرات تكلفة، لا توجد عقودات وأن الرسميين البريطانيين كانوا مذعورين جداً من قائدهم، وأن

75 - H. JACKSON, Sudan Days, cit., p. 2223-.
76 - P. MAGNUS, Kitchener. Portrait, cit., p. 148.
77 - G. WARBURG, The Sudan under Wingate ..., cit., p. 3.

الموظفين المصريين مندهشين[78]. كان الامتعاض متزايداً وسط السكان المحليين الجنود. شهد يناير 1900 تمردَ كتيبتين مصريتين[79] وانفجار شغب الأنصار (أنصار المهدي في ام درمان).

يُمثّل معمار المدينة الرسمي أيقونة للقوة. ولو أنها تبدو اليوم مقزّمة قبالة الفنادق الفاخرة على غرار 'نمط دبي' التي بناها مستثمرون ليبيون، قطريون وإماراتيون، كان حجم المباني الكلونيالية العامة مذهلا بالنسبة لعصرها وعكست روح الصلابة والديمومة التي لم تخفق في إبهار السكان المحليين. يصف جاكسون إعجاب الشيوخ الذين يزورون العاصمة من مديريات بعيدة، الذين لم يذهلوا كثيراً بالكهرباء والمدفع الرشاش بل بحقيقة أنه في قصر الحاكم، يكفي أن يدير الشخص صنبوراً حتى تتدفق المياه من الدش من مصدر لا يرى[80]. كان تمثال غردون أمام القصر، في تقاطع أثنين من شرايين المدينة، شارع فيكتوريا وشارع الخديوي، استعراض وسائل الراحة والمرافق داخل المساكن الخاصة والمباني العامة الابتكارات مثل محطة الكهرباء، شبكة مياه الشرب، خط الترام، كلها تمجّد التقانة الأوروبية وتفصح عن البون الشاسع بينها والسكان المحليين، على الأقل، بهدف إثارة الإعجاب والدهشة.

---

78 - P. MAGNUS, Kitchener, Portrait, cit., pp. 147150-.

79 - حسب كرومر، فالتمرد كان بسبب المرتبات: كتشنر بمبادرته الشخصية ودون التشاور مع القاهرة كان قد ألغى تعويض ات الموظفين لمقابلة الأعمال الإضافية بسبب إعادة بناء الخرطوم. أنظر:
P. MAGNUS, Kitchener, Portrait, cit., p. 150.

80 - H.C. JACKSON, Sudan Days, cit., p. 23.

كان أول المباني التي بُنيت كليةُ غردون على النيل شمال المدينة. كما ذكر من قبل، فقد قاد كتشـــنر بنفســـه حملة جمع التبرعات بتنظيم المؤتمرات في الجامعات البريطانية الرئيسية وكتابة المقالات في التايمس[81].

مـــن رواق الكلية الحمراء الغامق، يســـتطيع الشـــخص أن يلمـــح المبـــاني الحكوميـــة المبهـــرة، والشـــوارع محفوفة بالأكاسـيا شـديدة الخضـرة، خُصـــل النخيل الملوكـــي، و'بويتات' الموظفين الإنجليز، كما رصـــدها المسافرالشاعر دوجلاس ســـالدن[82]. وكلية غردون، في الأســـاس، هي مكان للتخليد وللإصلاح، لكنها أيضاً إحتفـــاء بمهمة الرجل الأبيض الحضـــارية أو 'مســـؤلية الرجل الأبيض'. مناطاً بها تدريب السودانيين الصغار، الذين هم بحســـب المشروع البريطاني السرّي ســـيحلون محل المصريـــين، في إدارة 'الخدمـــة المدنية الوطنية' في المســـتقبل، كانت كلية غردون هـــي الصرح الوقور

---

81 - هـذا الإلتزام ربما كان ناشئـاً عن المصلحة الشخصية. خلال الحصار الدرامـي للدراويش، كان كتشـنر الـذي لا يـزال عمدة، مسـؤلاً عن الاتصال بغردون. كانت العلاقة بين الطرفين يشوبها الكثير من الاخفاق في التوافـق وعدم التفاهـم، وأثـارت الكثير من اللغـط. وظل غردون يشتكـي مـن ضعف المعلومات وقلـة الرُسُل الذين يصلونـه من كتشنر من نقطة دنقلا. مرة بعد تسلمه طرداً من أدوات تواليت، رد غردون بخطبة عصمـاء ضـد جلادستون ورسوله الـذي لم يجد أفضل مـن أن يرسل له فرشـة شعر وصابون في لحظة طوارئ شديدة الدرامية. وبعد أيام قليلة، جـاء خادم المنزل الذكي بورق التغليف الذي كان غردون قد ألقى به غير منتبـه. وكان هذا يتضمن وثائق وضحف: 'هذا منجـم ذهب. هل أرسلها كتشنر خطأً أم متعمداً؟' هكذا صاح غردون كما يبدو. ذكرت الواقعة في: G. ARTHUR, Life of Lord Kitchener, cit., p. 102.

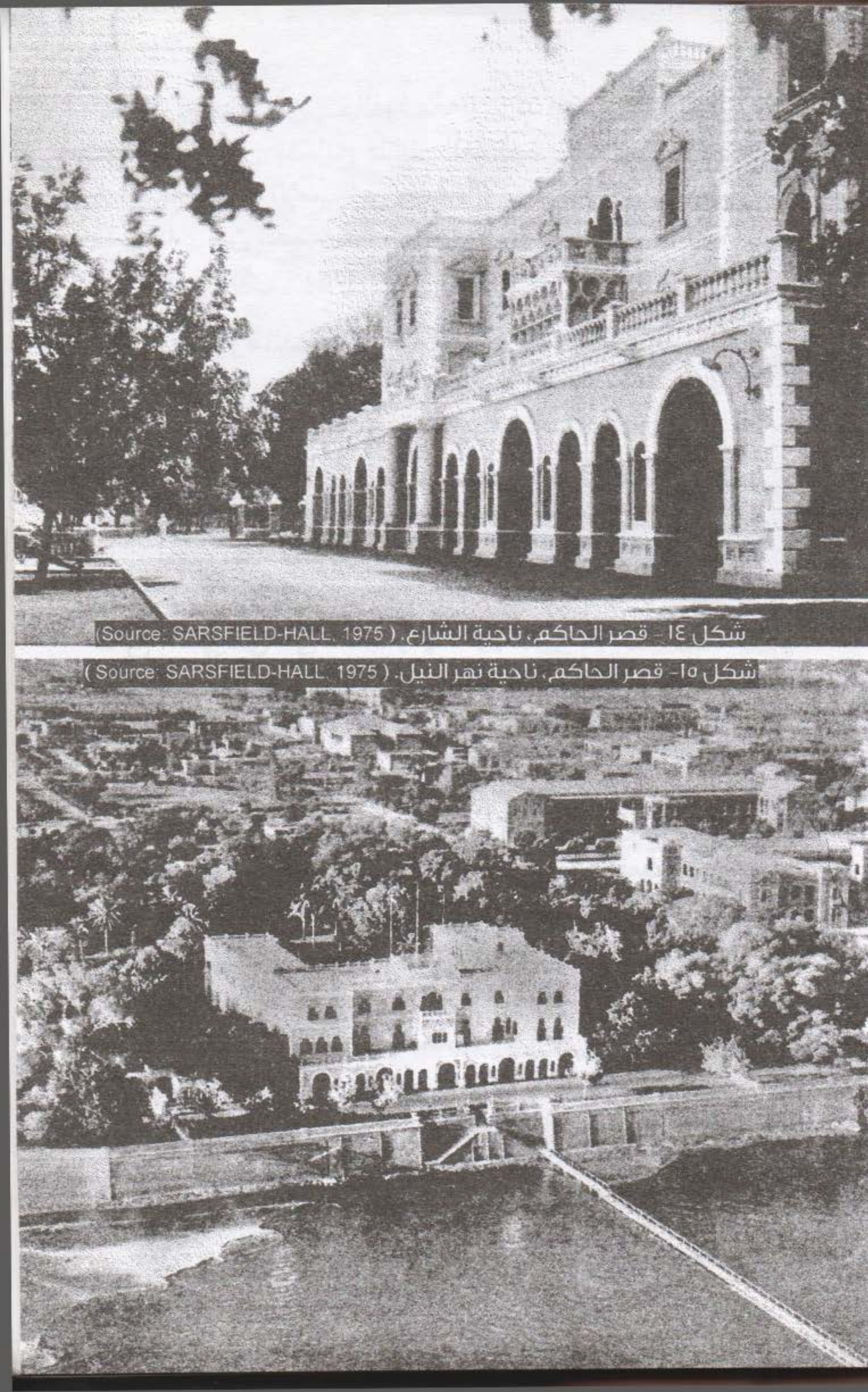
82 - H.F.B. WHEELER, The Story of Lord Kitchener, London, 1916, p. 144.

لأسلوب تعليمي مشوب بالنظام العسكري[83].

قصر الحاكم (أشـكال 14 و 15) كان قد بُني فوق أساس المبنـى الذي مات فيـه غردون، في مـكان قصر الحاكم التركي-المصري، مـكان القصر الجمهوري الحالي. هذا المبنى من الطراز الفينيسي الجديد، الهابط نوعاً ما، لكن بأبعـاده الفخمة وهيكله المتين، كان يمكن مشـاهدته من البواخر على النهر، مما جعله مرئياً لكل قادم للخرطوم، ومفصـحاً بوضـوح وعلى الفور، عن من هم الماسكين بخيوط اللعبة الجدُد.

علـى مبعدة من القصر، انتصـبت الكنيسـة الأنجيليكية (شـكل 16)، التـي تحولت الآن لمتحـف. ورغماً عن مقاساتها الكبيرة وبرج سـاعتها السابق، هُدم لاحقاً، لم تكن الكنيسـة باهرة مثل قصر الحاكـم: وفي تعبيرها المعماري عن الحلف بين العرشـ والمذبح، كان يبدو عليها أنها تكتفي بدور متواضـع. لكن وفوق كل شئ، فهي ليست المبنى الأضخم في المدينة. بل نال هذا اللقب الجامعُ الكبير. مبنياً على أساسات المسجد السابق، في قلـب المدينة، في ميدان عباس، يزهو المسـجد الكبير بمئذنتيه المشرئبتين إلى السـماء. وتُمكـن رؤيته من مسـافات بعيدة ومن أي زاوية عـبر الشرايين القطرية للمدينة المسـطحة. هذا هو، بلا شك، المذبح الذي آثر

83 - أ. ب. ثيوبولـد، المفتش السابق للخدمة المدنية السودانية، أن العقاب البدني على التلاميذ الصغار كان أسلوباً منتهجاً حتى للأخطاء البسيطة.
A. THEOBALD, W.M. FARQUHARSON-LANG, Higher education under the Condominium, in D. LAVIN (ed.), The Condominium Remembered. Proceedings of the Durham Sudan Historical Records Conference 1982, Vol. II, The transformation of the old order in the Sudan, Part IV: Education, Durham 1993, p. 168.



شكل ١٤ - قصر الحاكم، ناحية الشارع. (Source: SARSFIELD-HALL, 1975)

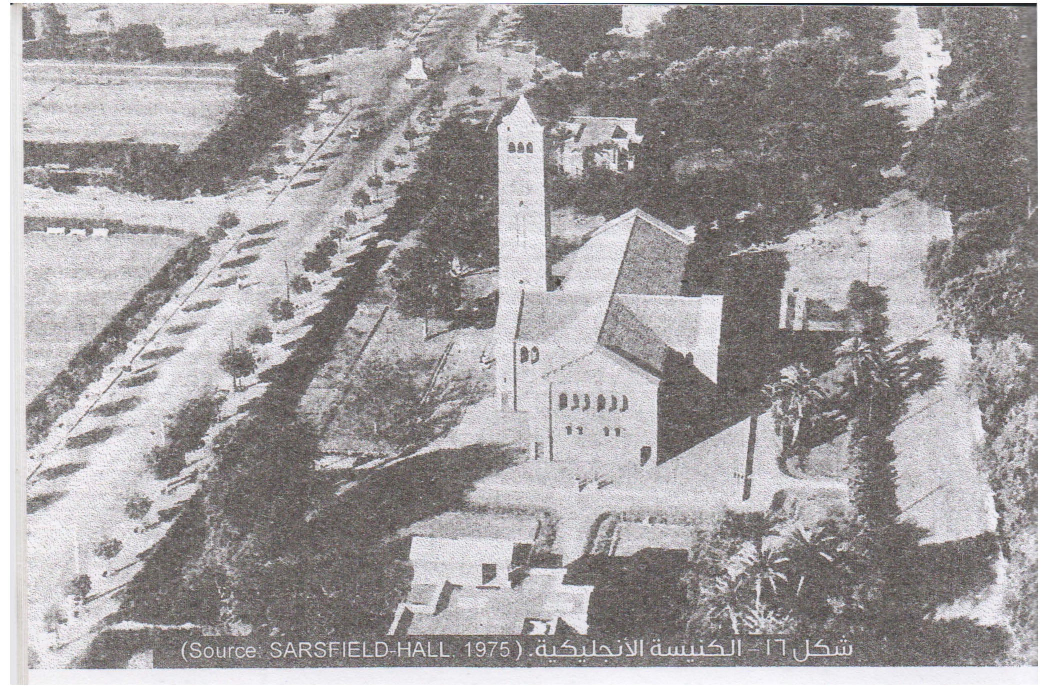
شكل ١٥- قصر الحاكم، ناحية نهر النيل. (Source: SARSFIELD-HALL, 1975)

المحتلون الجدد أن يتحالفوا معه. يؤكد البحث التاريخي هذه المسألة. نصائح كتشنر 'لمفتشي المراكز' كانت كاشفة جداً: الإسلام الحنيف الأورثودوكسي يجب تشجيعه، لكن الصوفية، الطريقة الهرطيقة التي غذت ثورة الدراويش، يجب قمعها دون تردد[84].

عكست العمارة المدنية هرمية القوة ولعبت، على مقياس أصغر، بنفس عناصر الترهيب والإغراء التي تستخدمها العمارة الرسمية. لم تكن مساكن الموظفين الكبار، على صفاف النيل، فخيمة بالضرورة، لكنها كانت واسعة وعريضة، بأسقف مرتفعة ومحاطة بالحدائق الغنّاء. هذا بينما كانت مساكن الموظفين البريطانيين الصغار والمصريين، بعيداً عن النيل، صغيرة ويغلب عليها طابعٌ 'اسبرطي' في تصميمها. وبالنسبة للسودانيين، على الأقل في أول الأمر، حتي مساكن أغنيائهم لم تكن لتُقارن بأي حال بمسكن نائب سكرتير بريطاني[85].

كانت الفراندا مظهراً ملازماً لمنازل الموظفين البريطانيين، لكن أيضاً البركس والفنادق. واستجلبوا من المستعمرات الآسيوية تقانات التهوئة، منغمسين في الشغف البريطاني بتيّارات الهواء (على حسب المعايير الصحيّة المتشددة للعصر الفكتوري، فإن تيارات الهواء يفترض أنها تبدد 'أبخرة' الأوبئة). وفرت الفرندات أيضاَ حماية من أشعة الشمس، التي هي خطرة بصفة خاصة على الرجل الأبيض، بحسب معمل ويلكم التابع لكلية غردون. الصحة التي يجب الحفاظ عليها هي بكل

84 - G. WARBURG, The Sudan under Wingate, cit., pp. 4106-95 ,6-.
85 - M.W. DALY, J.R. HOGAN, Images of Empire, Photographic sources for the British in the Sudan, Leiden, 2005, p. 233.


شكل ١٦ - الكنيسة الانجليكية. (Source: SARSFIELD-HALL, 1975)

وضوح صحة الأوربيين[86].

الحقيقة مختلفة جداً. عندما حطّ جاكسون في الخرطوم عام 1907، كان قصر الحاكم فقط يضاء بالكهرباء، وكان الموظفون البريطانيون يولمون على ضوء الشموع، وبرغم شبكة المياه الجديدة، كانت المياه لا تزال تجلب من النيل بالحمير وبالسقاة السودانيين، الذين ربما كانوا يافعين جداً[87]. كان معظم السكان يقطنون ام درمان، بينما بدت العاصمة كمسرح لحياة هانئة للمجتمع الإنجليزي، بميادين التنس والكروكيه ونادي الزوارق، على قدم المساواة مع الفلسفة البريطانية في الرفاه التي خلدتها الصور الفتوغرافية التي جمّعها وفهرسها دالي وهوجان[88]. وخلف هذه المناظر: كان الفراغ.

---

86 - W.H. McLEAN, The Planning of Khartoum, cit., p. 588.
87 - H.C. JACKSON, Sudan Days, cit., p. 24.
88 - M.W. DALY, J.R. HOGAN, Images, cit.

على عكس ما يوحي العنوان بشكل مستفز، فالسودان لم يكن مستعمرة بريطانية. ففي عُرف القانون الدولي كان تحت السـيطرة التركية وظل كذلك لسنوات طويلة. وهذه هـي النقطة التي يجب أن ننطلق منهـا لكيٍ ما نفهم جيداً تعقيد و أصـالة اختراع عاصـمتها. رسمياً، تمت إعادة غزو السودان بناءً على طلب مصري بموافقة اسطنبول. وقـد وطـدت اتفاقيـة 'الكوندومينيـوم'[89] الإنجليزية-التركيـة، بدلاً عن أن تفسّر، غموض تواجد البريطانيين في السـودان تركت جانباً موضـوع السيادة ومنحت حق إدارة السـودان لمصر وبريطانيا بالتضـامن. فعلياً، لم يمضِ التكافوء بين قوتـي 'الكوندومينيوم' أبعد كثيرً من الإلتـزام برفع علمي البلدين كلاهما. وما بقي غير مخبرٍ عنه في الاتفاقية عنى أكثر كثيراً مما أفصحت عنه، وأوحىَ بأن السـودان في حقيقة الأمر، هـو ملك للإمبراطورية البريطانية، متروك لإدارة وزارة الخارجية عبر القنصل البريطـاني بالقاهرة[90] (على غير المسـتعمرات الأخرى التي كانت تتبع لإدارة المستعمرات في لندن).

الرسالة الأساسية التي كان يفترض أن تحملها الخرطوم 'البريطانية' لم يكن شـيئاً يمكن تسـطيره في الاتفاقيات الدبلوماسـية، للطرافة، وهو أن البريطانيين هم السادة الحقيقيون. مخفياً بين سطور اتفاقية ال'كوندومينيوم'[91]

89 - M. ABBAS, The Sudan, cit., and L.A. FABUNMI, The Sudan in Anglo-Egyptian Relations, London, 1960.

90 - كان واجب الحاكم العام الوحيد هو أن يُبلغ القنصل البريطاني بالقاهرة (ورئيس الوزراء المصري بقرارته (المادة ٥

91 - دفعـت مصـر تعويضـاً سنويـاً للسـودان لموازنـة كل تجـاوزات

أن يتـم الخلاص من المصريين فور اسـتقرار اقتصـاد السـودان- العبء الذي وقع كلية على عاتق مصر[92]، وهو مـا كان يتعيّن تدبيره سراً وأن يعتـاد الرأي العام المحلي بالتدريج على الفكرة بتكرار الإيحاءات اليومية، الحركات، العادات والإيماءات البصرية في فراغ حضري مهيأ تجاه هذه النتيجـة، حتى يمكن إحداث التحوّل بأقل قدر من الدماء. ويتضـح وضـع المصريـين التابع في العسـكرية والخدمة المدنية في السـودان، المتفرع من الوضـع الذي كانوا أساساً تحت وطأته في بلادهم، من مواقع وأحجام مساكنهم. تفسـير البريطانيين للهندسة المحورية الغربية، التي فرضت على خريطة الخرطوم، أخفـى كليـة دور المصريـين في الكوندومينيوم. وهذا يُذكّرنا مـرة أخرى بتقريـر الماجور سـتانتون، الذي من الواضـح أنه أخذ على عاتقـه أن يدحض مقدماً أي اعتراض محتمل: تتضـمن القاهرة الفاطمية بالفعل بعض الشوارع والمباني، التي هي جميلة جداً لكن غير ملائمة للمناخ[93].

مقارنة بالموقف البريطاني الأكثر ضـعفاً في السودان، في كلا الجانبين العسـكري والثقافي، فقد كان المشروع أكثر طموحاً.

ميزانيـة القطر، وإعادة بنـاء الخرطوم وكل مرتبـات الحاكم والموظفين البريطانيـين. استمر هذا حتى تم التخلص مـن العجز في ١٩١٣. وعندما سُئل بواسطة مندوب حكومة بلفور عـن النفقات البريطانية في السودان، أجاب وينجت هازلاً أن كل ما احتاجوا لشرائه هو العلم البريطاني المفترض أن يخفق بجانب العلم المصري:

R. WINGATE, Wingate of the Sudan, London, 1959, p. 129.

92 - P.M. HOLT, A Modern History, cit., p. 112.

93 - E.A. STANTON, Discussion, cit., p. 601.

المهدية لم تكــن ميتةً، كما كتب ريجنالد وينجت للقاهرة ولربما تطفــو أية لحظة. كان من الضروري البقاء على أهبة الاســتعداد واتخاذ كافة التحوّطات[94]. في العقدين الأولــين بعد الغزو، حدثت انفجــارات حركات تمرد كل ســنة تقريباً، لكنها قُمعت سريعاً. أما المشــكلة الحقيقة فهي أن البريطانيين في شــمال السودان كانوا مواجهين يومياً بالحضــارة العربية والدين الإســلامي: رغماً عن نعتهــا بالدونيــة والتخلــف، فقد كانــت في كل الأحوال حضارةً عظيمة كما كان الإسلام واحداً من أعظم الأديان الموحّدة في العالم.

إن كتشنر، الذي أبقى المفتشين البريطانيين متيقظين في الليل، كان يمثّل 'الصــورة النبويّة'[95]. وكانت قســوته الذاتية، تتجلى في محاولته للقضاء على الحركة المهدية، بتدنيس قبر المهدي، والمحاكمة الخاطفة والإعدام الفوري لإبنيه الكبيرين، ونفي أسرته من السودان لمصر، كلها كانت أعراضاً لحالة الإرتياب التي يُسببها الوضع المهتز والضــعيف. وفي الحقيقة، فور انتهاء المعركة، صُرف الجيش وقلّصــت الحامية البريطانية في الخرطوم لمائتين وخمســين رجلاً فقط[96]، بزيادات قليلــة لاحقاً بناء على طلب وينجيت. على العموم، وينجيت لم يســتطع أن يلحّ أكــثر من اللازم، وإلا أتُهم بعدم الكفاءة المهنية. في هذا

94 - A.R. MUDDATHIR, Imperialism & Nationalism in the Sudan. A study in constitutional & political development 18991956-, Oxford, 1969, 2nd. edn. Khartoum, 1986, p. 90.

95 - O. KANE, J.L. TRIAUD, Islam et urbanismes au Sud du Sahara, Paris, 1998, p. 42.

96 - من أجل تحليل عميق للوضع الأمني الداخلي، أنظر:
M.W. DALY, Empire on the Nile. The Anglo-Egyptian Sudan. 1898-1934, Cambridge, 1982, pp. 105129-.

الأثناء كان القُطر، مقسّـماً لمقاطعات بعضها في مساحة إيطاليا، ويُدار بواسطة حفنة من الصغار موظفين الذين انتهى بهم المطاف أحياناً للإدمان والإحباط[97].

أشارت التقارير الأمنية بأن منشورات ذات نزعة إسلامية كانـت توزّع بين الجنود المصريين والفلاّتا. لقد أسـهم غزو السـودان في تحريك مشـاعر التململ والامتعاض وسـط المصريين ومهّد الأرض للدعـوة الوطنية. وقد دفع القبطـي بطرس غالي، في العام 1910، حياته ثمناً لتعاطفه مع المستعمر، عندما وقع اتفاقية الكوندومينيوم مع انجلترا نيابة عن مصر.
قدّم أثنان وسـبعون موظفاً سـودانياً، في عام 1906، عدة طلبات لرفع المرتبات. كتب وينجيت لكرومر سائلاً أن تُعطـى بعض الإمتيـازات[98]. كان احتمال أن يمتزج السخط السـوداني بالسـخط المصري غيرَ وارد كثيرا. حسب وينجيت، فإن الجنود السودانيين مدفوعين تقريباً ببعض الرفاق الإشـتراكيين. على العموم، فإن الدماء الشابة دائماً ما تشكل خطراً.

لذلـك لم تكن حماية العاصـمة مـن انتفاضـة يحركها المهديون هي الهم الوحيد بالنسـبة للبريطانيين، حالما تتحسـن علاقاتُهم الخارجية، خاصـة مع فرنسا. كانت الخرطـوم محتاجـة أيضـاً للحماية من فـرق احتلالها نفسـها، بصـفة خاصـة نظراً للخطة المبيتة بالإطاحة بالمصريين. وفي السنوات العشرة بعد إعادة الاحتلال، وُضـعت خطط متعددة لحماية العاصمة لكن لم تطبّق ولا

97 - J.W. FROST, Memories of the Sudan, cit., p. 67.
98 - M.W. DALY, cit., p. 110.

واحدة منها. وواحدة منها صيغت في السرّ ولم تتضمن أي دور للمصريين بل وضعت احتمال أن يُستدعى بعض الأوربيين حملة السلاح من نادي الرماية. كان النادي الإنجليزي يضم مائة عضو والنادي الإيطالي مائتين والإغريقي خمسمائة شخص[99].

على ضوء هذه البيانات الجديدة، فلنعد للخريطة مركّزين على البركس الإنجليزي في الشمال الشرقي. بعد تحويلها لداخلية طالبات تمكنت من زيارتها أنا شخصياً، تمت في الحقيقة إزالتها جزئياً قبل أيام قليلة من صياغة هذه الخلاصة الحالية. على زاوية نظر 90 درجة، تستطيع البركس أن تسيطر على الكبري فوق النيل الأزرق، تشرف على قصر الحاكم ومباني الحكومة ومنازل الأوربيين. بل وأكثر من ذلك، ومن فوق الفراغ المتروك لحرم خط السكة الحديد، كان لديهم إطلالة على البركس المصري في حدود المديرية.

في هذا الأثناء كانت بريطانيا تنسج شبكة حلفائها المحليين مُعملة سياستها التي اختبرها الزمن: فرّق تسُد، على نحو ظهرت آثاره الدائمة في السودان. فضل البريطانيون بعض القبائل على بعضها وبعض القيادات الدينية على حساب الآخرين. قهروا الصوفية المقهورة ودعموا الإسلام الأورثودكسي، وبنوا مساجدَ في كل مدينة مهمة، وصرّحوا بتدريس الشريعة وشجعوا التبرعات المالية[100]، بينما حدّوا على الدوام، كما رأينا، من النشاط الكاثوليكي. دعموا بصورة واضحة الطريقة الختمية التي يقودها السيد علي الميرغني[101]، الأمر

99 - Ibid, p. 111.

100 - G. WARBURG, The Sudan under Wingate, cit., p. 96.

101 - A. MUDDATHIR, Imperialism, cit., p. 90.

الذي عكســته مدينة الخرطوم كمرآة، بالمسجد في مركز المدينة ومنزل السيد علي في قلب الجيب الأوروبي.
علــى كل حــال، التخلص من المصريين استلزم تهيئة الإدارة الســودانية المستقبلية التي ستَحل مكانَهم. كانت السياسة تجاه المحليين أبوية بصورة هائلة، خيريّة على الخصوص، ليست قاســية أبداً وبشكل أساسي مكرسّة في أربعة إتّجاهات عبر المدينة: تشغيل الشباب العاطلين أو اســتيعابهم، في كتائب العاصــمة، في وظائف أدنى مــن مؤهلاتهم[102]، خلق 'إدارة محلية' جديدة، ويكون محورُهــا كلية غردون، خلق طبقة مــن مُلّاك العقارات الصــغار، كما أقتُرح بواســطة فون ســلاتن، بما يعني برجوازية صــغيرة موالية لبريطانيا، من خَلال بيع قطع الأراضي، تطبيق 'قانون الإســكان وتخطيط المدن' في منطقة الســكان المحليين ومنطقة عمال الســكة الحديد، التي لا تزال تُرى حيث تبدو المســاكن مفصولة بممرات للرصــد يبلغ عرضــها 12 قدماً عادة. جرى الأمر ببطء واحــتراز. في ألأول اعتمد البريطانيــون على المجتمع اللبنــاني، المتكن من العربيــة والإنجليزية معاً، كمعبر للسودانيين[103].
هــذا الإحلال على شــاطئ النيل لنمــوذج مدينة مثالية، أوروبيــة تقدّمية، لكنها خاضــعة لاحتياجات عســكرية وسياسية دقيقة، يُلقي بعُدة أسئلة بشأن تنوع الرسائل،

102 - M.W. DALY, Empire, cit., pp. 114115-.

103 - واحــد مــن هؤلاء كان نعــوم بيه شقــير، ذراع وينجيت الأيمن في إدارة المخابــرات، الذي استخدم المعلومات السريــة بحوزته و فرّغها في كتابه المثير:
Géographie du Soudan.

أنظر
: P.M. HOLT, A Modern History, cit., p. 119.

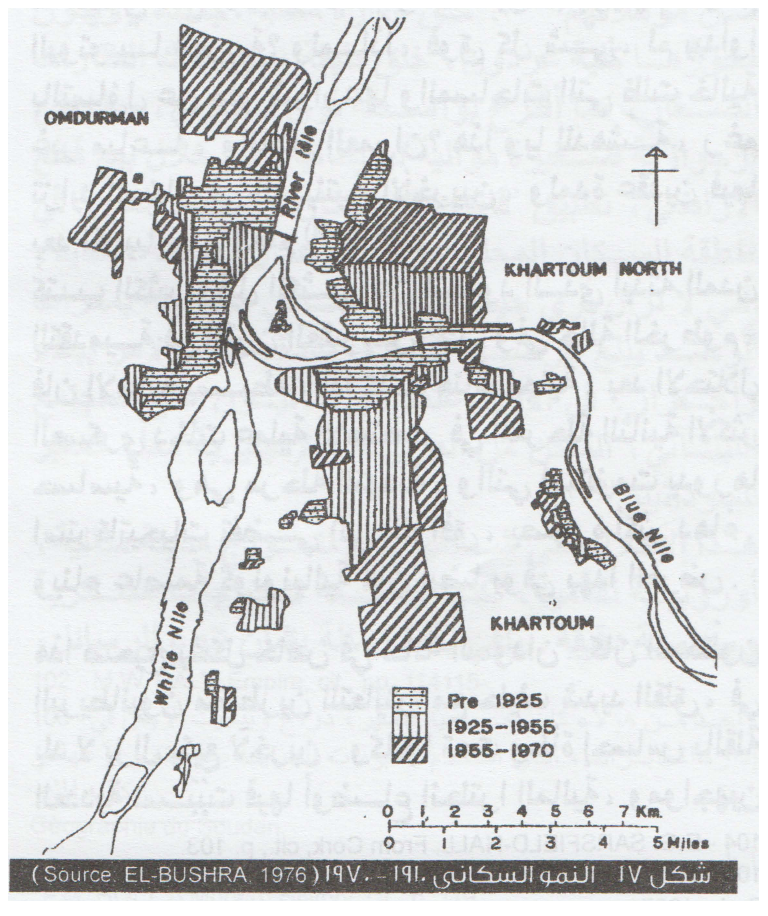
والوظائف والأهداف التي تتضمنها دلالات كلمة 'حداثة' حينما تفسّر في سياق مصطلحات التخطيط الحضري.

ومن بين المستوطنات الثلاث التي كانت قد أخذت في الظهور آنذاك، فيما سيصبح لاحقاً الخرطوم العظمى الحالية: أم درمان، المدينة القديمة، الخرطوم بحري، حول حوض بناء البواخر والمنطقة الصناعية المقبلة، والخرطوم كمركز إداري وعسكري، ربما يسأل الشخص: ما الذي دفع الإنجليز لاختيار الأخيرة لتجربتهم نموذج اليوتوبيا الغربية؟ ولماذا، فوق كل شئ، لم يبدأوا بالتساؤل عن خلوّ شوارعها والمساحات التي ظلت خالية غير مباعة، وانعدام العمران؟ هذا ويا للدهشة، رغم تزايد السكان في المدينتين الأخريين، ولمدة عقدين فيما بعد تقريباً حتى العام[104] 1925.
كتب الكثير وقيل الكثير عن الجمود الذي أبدته المدن التقدمية في القرن العشرين[105]. وفي حالة الخرطوم، فإن الإجابة بسيطة، إذا كانت هناك إجابة. بعد الإحتلال العسكري دخلت عملية الاستعمار في المرحلة الثانية الأكثر حساسية، وهي مرحلة التهدئة، والتي استلزمت بدورها استرتاتيجيات تفضي إلى التوافق، بصورة أكثر دهاءً. وبناء عاصمة كولونيالية كان أيضاً يوفي بهذا الغرض.

هذا صحيح بشكل خاص في حالة السودان. كان المحتلّون البريطانيون مضطرين للتعايش مع حليف شديد القلق، في بلد لا يزال يتبع لآخرين. وكانوا تحت وطأة إحساس بالقلة العددية تسببت فيها أوضاع انجلترا المالية، ومواجهين

104 - E.G. SARSFIELD-HALL, From Cork, cit., p. 103.
105 - F. CHOAY, L'Urbanisme, utopies et réalités. Une anthologie, Paris, 1965.

بحضارة قديمة كان من الصعب عليهم، في أغلب الأحيان، فهمها. لذلــك، كان بمقدورهم أن يلبعبــوا بورقة واحدة: أن يجتذبــوا ويُغروا رعاياهم، الذيــن، للغرابة، كانوا هم الوحيدين الذين اســتطاعوا أن ينتشلوهِم من هذا المأزق. كون إِن العاصِمة قابلة للاستخدام فعلا، فهذا صحيح ويعد أمــرا ثانويا، مقارنة بأمــر آخر أكثر أهميــة: حالما تمت هزيمة السودانيين بالســلاح، أصبح من الضروري كسب 'قلوبهم وعقولهم'.



شكل ١٧ النمو السكانى ١٩١٠ - ١٩٧٠ (Source: EL-BUSHRA 1976)

مراجع

ABBAS M., *The Sudan Question: the dispute over Anglo-Egyptian Condominium, 1884-1951*, London, 1952.

ARTHUR G., *Life of Lord Kitchener*, London, 1920.

BARBOUR B., *Khartoum: Past, Present and the Prospects for the Future*, Durham, 2003.

BARING E., Lord CROMER, *Modern Egypt*, London 1908, reprint, New York, 2001.

BENTHAM J., *Le Panoptique*, postface by C. LAVAL, Paris, 2002.

BERESFORD M.W., *Time and Place. An Inaugural Lecture*, Leeds, 1961.

CERDA I., *La théorie générale de l'urbanisation. Présentée et adaptée par Antonio Lopez de Aberasturi*, Preface by Françoise Choay, Paris, 1979.

CHOAY F., *L'urbanisme, utopies et réalités. Une anthologie*, Paris, 1965.

CHOAY F., Préface to I. CERDA, *La Théorie Générale de l'Urbanisation. Présentée et adaptée par Antonio Lopez de Aberasturi*, Paris, 1979.

CHURI J.H., *Sea Nile, the Desert, and Nigritia. Travels in Company with Captain Peel, R.N. 1851-1852*, London, 1853.

COLLINS R.O., *The British in the Sudan. The Sweetness and the Sorrow*, London, 1984.

DALY M.W., *Empire on the Nile. The Anglo-Egyptian Sudan. 1898-1934*, Cambridge, 1986.

DALY M.W., HOGAN J.R., *Images of Empire. Photographic Sources for the British in the Sudan*, Leiden, 2005.

EL-BUSHRA S., *An Atlas of Khartoum Conurbation*, Khartoum, 1976.

EL-MAHDI S.M.A., *Introduction to the Land Law of the Sudan*, Khartoum, 1979.

FABUNMI L.A., *The Sudan in Anglo-Egyptian Relations*, London, 1960.

FILIPPI E., *Don Alessandro Dal Bosco da Verona a Khartoum e ritorno* in A. BRUGNOLI-G.M. VARANINI (a cura di), *Magna Verona Vale. Studi in onore di Pierpaolo Brugnoli*, Verona, 2008, pp. 209-228.

FRUIT J.W., *Memories of the Sudan Civil Service*, in R. COLLINS, F.M. DENG (a cura di), *The British in the Sudan. The Sweetness and the Sorrow*, London, 1984, pp. 65-105.

GRANDIN N., *Après le Mahdi: la politique coloniale chez les pasteurs arabes soudanais*, in "Cahiers d'études africaines", 1978, Vol. 18, n. 69-70, pp. 119-158.

GRANDIN N., *Le Soudan Nilotique et l'Administration Britannique (1898-1956)*, Leiden, 1982.

HILL R.L., *Egypt in the Sudan 1820-1881*, London, 1959.

HOLT P.M., *The Mahdist State in the Sudan 1881-1898*, 2ª edn., Oxford, 1970.

HOLT P.M., *A Modern History of the Sudan. From the Fung Sultanate to the Present Day*, 2ª ediz., London, 1963.

JACKSON H.C., *Sudan Days and Ways*, London, 1954.

KITCHENER H.H., *Discussion*, in W. WHYTE (a cura di), *The Transactions of the Royal Institute of British Architects. Town Planning Conference. London 10-15 October 1910*, Abingdon, 2011, pp. 596-597.

KANE O.-TRIAUD J.L., *Islam et Islamismes au sud du Sahara*, Paris, 1998.

LAVAL C., *De l'utilité du Panoptique. Postface*, in J. BENTHAM, *Le Panoptique*, Paris, 2002.

LAVIN D. (ed.), *The Condominium Remembered. Proceedings of the Durham Sudan Historical Records Conference, 1982*, vol. I, Durham, 1991 and vol. II, Durham, 1993.

MOHAMED AHMED H.M., *Sudan. The Christian Design. A Study of the Missionary Factor in Sudan's Cultural and Political Integration 1843-1986*, Leicester, 1986.

MCLEAN, W.H. *The Planning of Khartoum and Omdurman*, in W. WHYTE (ed.), *The Transactions of the Royal Institute of British Architects. Town Planning Conference, London 10-15 October 1910*, Abingdon, 2011, pp. 571-596.

MAGNUS P., *Kitchener. Portrait of an Imperialist*, London, 1958.

MICHIE-HARRIS A., *Gordon and the Sudan. Prologue to the Mahdiyya 1877-1880*, New York, 2001

MUDDATHIR A.R., *Imperialism & Nationalism in the Sudan. A Study in Constitutional & Political Development 1899-1956*, Oxford, 1969, 2nd edn, Khartoum, 1986.

NICOLL F., *The Mahdi of Sudan and the Death of General Gordon*, Stroud, 2004.

NJOH A.J., *Planning Power. Town Planning and Social Control in Colonial Africa*, London, 2007.

NORBERG, SCHULZ C., *Genius loci. Paysage, ambiance, architecture*, Paris, 1997.

OLSEN D.J., *The City as a Work of Art. London, Paris, Vienna, New Haven*, 1986.

PASE A., *Linee sulla terra*, Roma, 2011.

PIDDOCK S., *A Space of their Own. The Archaeology of Nineteenth-Century Lunatic Asylums in Britain, South Australia and Tasmania*, Adelaide, 2007.

PODESTA G.L., *Le città dell'impero. La fondazione di una nuova civiltà italiana in Africa Orientale*, in "Città e Storia", I, 2009, pp. 111-135.

PODESTA G.L., *Colonists and "Demographic" Colonists. Family and Society in Italian Africa*, in "Annales de démographie historique", 2011, n. 2, pp. 205-231.

RAIMBAUD M., *Le Soudan dans tous ses états*, Paris, 2012.

ROYLE T., *The Kitchener Enigma*, London, 1985.

SARSFIELD-HALL E.G., *From Cork to Khartoum. Memories of Southern Ireland and the Anglo-Egyptian Sudan, 1886-1936*, Kendal, 1975.

SCHOETTLER G.S., *The Genial Barons*, in R.O. COLLINS, F.M. DENG (eds), *The British in the Sudan. The Sweetness and the Sorrow*, London, 1984, pp. 105-134.

SÈBE B., *Porte-drapeaux de l'Empire. La promotion des héros coloniaux français et britanniques de la conquête de l'Afrique à la seconde guerre mondiale*, in "Synergies Royaume-Uni et Irlande", 2, 2009, pp. 81-92.

SÈBE B., *Heroic Imperialists in Africa. The Promotion of British and French Colonial Heroes, 1870-1939*, Manchester, 2013.

SHUQAYR N.B., *Géographie du Soudan*, French transl. V.A. YAGI, Paris, 2012.

SITTE C., *L'Art de bâtir les villes. L'urbanisme selon ses fondements artistiques*, French transl. D. WIECZOREK, Paris, 1996.

STANTON E.A., *Discussion*, in W. WHYTE (ed.), *The Transactions of the Royal Institute of British Architects. Town Planning Conference, London 10-15 October 1910*, Abingdon, 2011, pp. 597-600.

STRACHEY L., *Eminent Victorians*, London, 1918.

THEOBALD A., FARQUHARSON-LANG W.M., *Higher Education under the Condominium*, in LAVIN D., (ed.), *The Condominium Remembered. Proceedings of the Durham Sudan Historical Records Conference, 1982*, vol. II, *The Transformation of the Old Order in the Sudan*, Part IV. *Education*, Durham, 1993, pp. 166-174.

WARBURG G., *The Sudan under Wingate. Administration in the Anglo-Egyptian Sudan 1899-1916*, London, 1971.

WARNER P., *Kitchener. The Man Behind the Legend*, London, 1985.

WESSELING H., *Le partage de l'Afrique 1880-1914*, Leiden, 1991, French transl., Paris, 1996.

WHEELER H.F.B., *The Story of Lord Kitchener*, London, 1916.

WHYTE W. (ed.), *The Transactions of the Royal Institute of British Architects Town Planning Conference London 10-15 October 1910*, Abingdon, 2011.

WHYTE W., *Introduction*, in *The Transactions of the Royal Institute of British Architects. Town Planning Conference. London 10-15 October 1910*, Abingdon, 2011.

WIECZOREK D., *Camillo Sitte et les débuts de l'Urbanisme Moderne*, Paris, 1981.

WINGATE F.R., *Mahdiism and the Egyptian Sudan*, London, 1891, 2nd edn with an introduction by P.M. HOLT, London, 1968.

WINGATE R., *Wingate of the Sudan*, London, 1955.

ZUCCONI G., *La città contesa. Dagli ingegneri sanitari agli urbanisti (1885-1942)*, Milan, 1989.